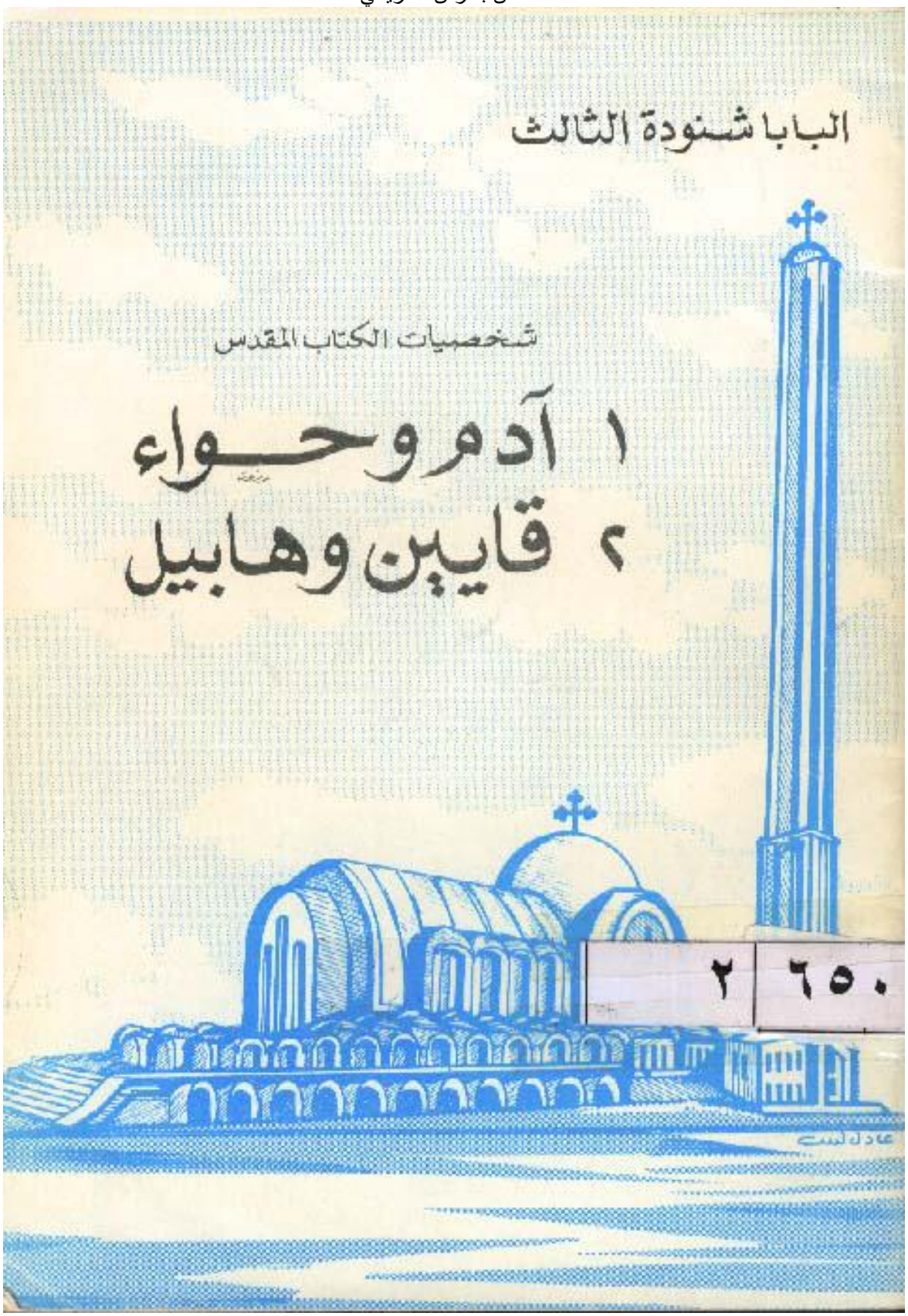
البابا شنودة الثالث
شخصيات الكتاب المقدس
١ آدم وحواء
٢ قايين وهابيل
٢ ٦٥٠

القمص بطرس السرياني

شخصيات الكتاب المقدس

١ آدم وحواء
٢ قايين وهابيل

1- Adam & Eve
2- Cain & Abel

البابا شنودة الثالث
H.H. Pope Shenouda III

Second Reprint
September 1982

الطبعة الثانية
سبتمبر ١٩٨٢

قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية
الـ " ١١٧ "

مقدمة

ليست هذه دراسات فى العهد القديم ، ولا هى مقدمات لأسفاره ، إنما هى تأملات روحية ، تقدم منهجاً تأملياً فى الكتاب .

وقصتها قديمة معى ...

إذ كنت قد قمت بتدريس العهد القديم فى الكلية الإكليريكية ، عقب تخرجى فيها ، من أكتوبر سنة ١٩٤٩ ، أى أكثر من ثلاثين عاماً ... كما قمت بتدريس العهد الجديد من سنة ١٩٥٢ .

وكنت أرى الكتاب - كما قدمه الرب لنا - روحاً وحياة ...
وهذا ما أريد أن أقدمه لك ، أيها القارىء العزيز .

تماماً ، كما قدمته فى محاضرات يوم الثلاثاء بالكاتدرائية الكبرى ، خلال ثلاث سنوات من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٢ م .

وأود من أجلك ، أن أتابع نشر هذه المجموعة ، التى أحب أن تحتفظ بها معك ، كاملة ...

وثق أنك سترى حياتك الخاصة ، من خلال شخصيات الكتاب ... فالنفسية البشرية هى هى ، منذ آدم ، وحواء إلى يومنا هذا ...

ولقد صدرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة عن « آدم وحواء » ، و « قايين وهابيل » فى ٢٤ فبراير ١٩٨٠ ونفذت فور صدورها . وها نحن نعيد طبعها ، ليحتفظ بها من فاته إقتناؤها قبلاً ...

وسأحاول أن أتابع معك شخصيات العهد القديم ، حتى يوحنا المعمدان ... كما نتناول شخصيات العهد الجديدمأيضاً ، إن أحب الرب وعشنا .

وأحتاج إلى صلواتك ، لكيما يعطينى الرب نعمة لإكمال هذا العمل

سبتمبر ١٩٨٢ **شنوده الثالث**

شخصيات الكتاب

*** قدم لنا الكتاب المقدس ألواناً متنوعة من « أناس الله القديسين » :**

إنها صور متعددة من قديسين ، كل منهم له طابعه الخاص ، يختلفون فى العمر والجنس والوظيفة والحياة الإجتماعية والأسلوب الروحى .

وذلك لكى نتعلم أن القداسة ملك للكل ، وليست وقفاً على فئة معينة من الناس دون غيرها ...

فلم يقدم لنا الكتاب حياة القداسة أو حياة الكمال ، قاصرة على الأنبياء والرسل مثلاً ، أو على الكهنة ورؤساء الكهنة ، أو على صانعى العجائب والمعجزات ، إنما هى للكل ، وهى بإمكان كل أحد ...

*** قدم لنا الكتاب المقدس قديسين فى مراحل متفاوتة من العمر :**

منهم الأطفال مثل صموئيل ، ومنهم الصبيان مثل داود وأرمياء . ومنهم الشباب مثل يوسف الصديق ، و يوناثان ، ومار مرقس و يوحنا الحبيب . ومنهم الرجال الناضجون مثل موسى و بطرس ، ومنهم الشيوخ مثل نوح وأخنوخ وإبراهيم ... وسمعان الشيخ ...

*** قدم لنا رجالاً ككل هؤلاء . كما قدم لنا نسوة قديسات** ... مثل مريم العذراء ، وحنة النبية ، وسارة ، وراعوث ، وإستير ، واليصابات ، ومريم أخت لعازر ... وغيرهن كثيرات ...

*** وكما قدم لنا قديسين متفاوتين فى العمر ، قدم لنا أيضاً قديسين متفاوتين فى المركز الإجتماعى ، وفى الغنى والفقر : فالمسألة أولاً وأخيراً مسألة قلب مستعد لعمل النعمة فيه ، أياً كان مركزه أو وضعه المالى أو وظيفته فى المجتمع .**

وهكذا قدم لنا الكتاب قديسين أغنياء جداً مثل أيوب الصديق ، وأبينا إبراهيم ، و يوسف الرامى . كما قدم لنا فقراء مثل الأرملة التى دفعت من أعوازها فلسين فى الصندوق ، ومثل أرملة صرفة صيدا التى إستضافت إيليا النبى ، ومثل لعازر المسكين الذى كان يستعطى ، وكانت الكلاب تلحس قروحه ...

قدم لنا الكتاب رعاة غنم مثل داود وإسحق و يعقوب ، وصيادى سمك مثل بطرس وإندراوس ، وعشار بن مثل متى وزكا ، وملوكاً مثل داود و يوشيا ، ووزراء مثل دانيال و يوسف ، وأسرى حرب مثل الثلاثة فتية ، وأبطالاً مثل شمشون ، وقضاة مثل جدعون ، وطبيباً مثل لوقا ، وكاتباً مثل عزرا ، وخادماً مثل لعازر الدمشقى ...

*** وقدم لنا الكتاب أيضاً قديسين متفاوتين فى ثقافتهم وعلمهم :**

فبينما نرى موسى الذى « تهذب بكل حكمة المصريين » ، و بولس الذى كان من علماء عصره ، وسليمان الذى كان أحكم أهل الأرض فى زمانه ، نرى أيضاً جهال العالم الذين إختارهم الله ليخزى بهم الحكماء ...

*** كذلك قدم لنا الكتاب أمثلة متفاوتة فى البتولية والزواج والترمل ، وكلها كانت تحيا حياة مقدسة طاهرة أحبها الرب ...**

قدم لنا بتوليين قديسين مثل إيليا واليشع و يوحنا المعمدان و يوحنا الحبيب ، ومتزوجين قديسين مثل نوح البار ، و بطرس الرسول ، وأخنوخ أبى الآباء الذى رفعه الله إليه ... كما قدم لنا من عاشوا حياة مقدسة فى الترمل مثل حنة النبية ، ومن تزوجوا بعد ترملهم مثل راعوث ، ومن تزوجوا بأكثر من واحدة مثل إبراهيم وموسى وداود ...

وعلى جبل التجلى ، ظهر السيد المسيح ، محاطاً بإيليا البتول ، وبموسى المتزوج ، والكل يحيط بهم نور عجيب .

وحول الصليب ، كانت مريم العذراء و يوحنا البتول ، ومريم زوجة كلوبا التى أنجبت عدداً كبيراً من البنين والبنات ...

*** قدم لنا الكتاب من عاشوا حياة مقدسة منذ البدء ، ومن جاءوا إلى الرب أخيراً ، ورحمهم الله وقبلهم إليه :**

قدم لنا قديسين من بطون أمهاتهم ، مثل يوحنا المعمدان الذى امتلأ من أمه إمتلأ من الروح القدس . كما قدم لنا قديسين وقديسات عاشوا فى عمق الخطية قبل لقائهم بالرب ، مثل اللص اليمين ، والمرأة التى بللت قدمى الرب بدموعها ، ومثل راحاب الزانية ، وقدم لنا الكتاب أشخاصاً عاشوا من قبل بعيدين عن الله ، مثل مريم المجدلية التى أخرج منها الرب سبعة شياطين ، والمرأة الكنعانية التى كانت من شعب ملعون أممى ...

وقدم لنا قديسين من مضطهدى الكنيسة ، مثل شاول الطرسوسى ، ومثل الجندى

الذى طعن المسيح بالحربة .

*** قدم لنا الكتاب المقدس شخصيات تحمل ألوانا من الروحيات ، متنوعة ، ومتغايرة ولكننا نراها كلها متكاملة :**

قدم لنا إيليا الشديد النارى ، الذى أغلق السماء ثلاث سنين وستة أشهر فلم تمطر ، والذى قتل المئات من أنبياء البعل وأنبياء السوارى ، وإنتهر آخاب الملك ، وقال لتنزل نار من السماء وتأكل الخمسين فنزلت وأكلتهم . كما قدم لنا الكتاب أرمياء النبى الباكى الذى سكب دموعه ومراثيه .

وأرانا الكتاب كيف أن الله عمل فى الشخصية النارية ، كما عمل فى الشخصية الباكية . وإستخدم الإثنتين فى بناء ملكوته . فليس المهم هو نوعية الشخص ، إنما تسليمه لإرادته فى يد المشيئة الإلهية .

فى الكتاب نرى شخصية بطرس الرسول المملوءة غيرة وتسرعاً وإندفاعاً ، مع شخصية توما المملوءة حرصاً وشكاً وتريثاً وحباً للفحص وبعداً عن الإندفاع . وكلاهما فى يد الرب ، يعمل بهما . ونرى فى الكتاب كيف إستخدم الله أُناساً كما هم ، بينما غير البعض فحول يوحنا إبن الرعد ، تلميذ المعمدان إلى قلب كله حب ...

*** وكل فضيلة تعجبنا ، نرى شخصيات فى الكتاب تمثلها :**

نرى أيوب يمثل الصبر ، وسمعان الشيخ يمثل الرجاء والإنتظار . نرى داود يمثل التوبة والإنسحاق ، وإبراهيم يمثل الطاعة والإيمان . نرى يعقوب الهادىء المحتمل ، و يوحنا المعمدان المشهور بالشجاعة والمواجهة ، و بولس المملوء نشاطاً وغيرة وحركة وتعليماً كما نرى العذراء المشهورة بالصمت والتأمل ...

إنها باقة من الفضائل متنوعة الأزهار والألوان والعطور :

يقدمها الكتاب المقدس ، فى أشخاص أتقنوها عملياً ، وتركوها لنا كقدوة ومثال . بحيث أننا إن أردنا صفة ما ، أو فضيلة ما ، سنجد حتماً الشخص الذى يعطى لها صورة مثالية . وهكذا يكون الكتاب جامعاً لكل ما نريد .

*** لذلك لا ييأس أحد مفتكراً أن حالته لا تناسب دعوة الله :**

فالله مستعد أن يدعوك كما أنت ، أياً كانت حالتك ، أو ثقافتك ، أو سنك ، أو

مركزك ، أو وضعك الإجتماعى ... إنه « الداعى الكل إلى الخلاص » ... ولعلك تجد مثيلاً لك فى الكتاب المقدس ، قد عمل الله فيه و به ...

لا تقل إذن « لست أصلح » . فليس المهم هو صلاحيتك ، إنما المهم هو عمل الله معك . والله قادر أن يعمل مع الكل . قل له إذن « مستعد قلبى يا الله ، مستعد قلبى » (مز ٥٦) .

*** ومن الأمور المعزية أيضاً فى الكتاب أنه قدم لنا مثاليات مثلنا ، لقديسين كانت لهم ضعفاتهم ونقائصهم وسقطاتهم :**

ولكن روح الله قد عمل فيهم ، وأوصلهم إلى درجات عليا فى القداسة ، على الرغم من هذه الطبيعة التى يمكن أن تضعف أحياناً ، وتسقط ... وما أعمق وأصدق قول الكتاب : **« إيليا ، كان إنساناً ، تحت الآلام مثلنا ... » (يع ٥ : ١٧ ، ١٨) .**

ومع أنه كان تحت الآلام مثلنا ، إلاَّ أنه « صلى صلاة » . وإستطاع أن يغلق السماء ، وأن يفتحها .

قدم لنا الكتاب إبراهيم الذى خاف أن يقتلوه ، فقال عن زوجته سارة إنها أخته . و يعقوب الذى خدع أباه ، وسرق بركة أخيه . وشمشون الذى أغرته دليلة ، فكسر نذره . ونوحاً الذى سكر وتعرى ، وداود الذى زنى وقتل ، وتوما الذى شك ، و بطرس الذى أنكر ...

لم يقدم لنا الكتاب قديسين معصومين ، أو بشراً من نوع الملائكة ، إنما قدم بشراً مثلنا ، واقعاً لا خيالاً ... قدم النفس البشرية التى نعرفها ، والتى إختبرناها ، « الأوانى الخزافية » السهلة الكسر ، التى عمل فيها الخزاف العظيم ، وصنع منها أوانى للكرامة ، وجعلها رائحة بخور ذكية ، أمام الملائكة والبشر ... وكان « فضل القوة لله وليس لنا » (٢ كو ٤ : ٧) . أما عن الحروب الروحية التى تعرض لها هؤلاء ، فيعزينا الكتاب بقوله : **« الحرب للرب . والرب قادر أن يغلب بالكثير و بالقليل » .**

قدم لنا الكتاب المقدس عينات من قديسين ، من نفس نوعنا ، يمكن أن تضعف ، ويمكن أن تسقط ، ويمكن أن تخطىء وأن تزل ...

*** ولكنه قدم لنا فى هؤلاء القديسين الذين أخطأوا ، صوراً رائعة من التوبة . نصف الحقيقة أنهم أخطأوا ، والنصف الآخر ، الأروع ، أنهم تابوا ...**

إن الكتاب المقدس صريح وواقعى . إنه يقدم لنا قديسين من نفس طبيعتنا ، التى يمكن أن تخاف ، وأن تشتهى ، وأن تفتر ، وأن تهرب ، وتختبىء من الله ... حتى السبعة ملائكة الذين للسبع كنائس فى آسيا ، نراهم من نفس الطبيعة البشرية العادية :

لذلك حينما ندرس هؤلاء الرعاة ، الذين وصفهم الكتاب بأنهم ملائكة ، لا ننسى أن واحداً منهم كان فاتراً ، لا هو حار ، ولا هو بارد ، وكان الله مزمعاً أن يتقيأه (رؤ٣: ١٦) . ونرى واحداً آخر منهم ، على الرغم من تعبه وكده لأجل الله ، عاد وترك محبته الأولى ، وأرسل له الله قائلاً « أذكر من أين سقطت وتب » (رؤ٢: ٥) . ونرى ملاكاً ثالثاً من ملائكة هذه الكنائس السبع ، يقول له الرب « إن لك إسماً إنك حى وأنت ميت » (رؤ٣: ١) .

إنها نفس الطبيعة البشرية التى لباقى الناس ... والكتاب المقدس لا يكلمكم من وحى الخيال ، ولا يصور لكم قديسين لهم أجنحة من نور ونار ، و يطيرون فى السماء ، و يسبحون فى أجواء القداسة العليا ...

ولكن بعمل الله القوى الذى عمل فيهم ، بنعمته التى دخلت إلى قلوبهم ، بروحه القدوس الذى أرشدهم وقواهم وأشترك فى العمل معهم ... بهذا قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه ... وتغيروا ...

بطرس الذى خاف ذات مرة أمام جارية وأنكر المسيح ، تحول إلى القديس بطرس الجبار العنيف ، الذى وقف أمام ولاة وملوك ، وقال للشيوخ ولرؤساء الكهنة « ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس » (أع ٥ : ٢١) ... جاهر بالإيمان ، وتعب لأجله ، وصار شعلة من نار ، وصلب ، ومات شهيداً ...

ما هذا يا أبى القديس بطرس ؟ يجيب : لقد كنت ضعيفاً مثلك ، وخائفاً مثلك . لكن الله عمل فى ضعفى ، وروحه قوانى وشددنى ، فشهدت له أمام الكل ...

إذن ، حينما نجد القديس بطرس الرسول قد ملأ الدنيا تبشيراً ، لا نقول إنه من طبيعة أخرى سامية غير طبيعتنا ... كلا ، إنه مثلنا . ولكنه فتح قلبه لعمل الله ، وسلم مشيئته لمشيئة القدوس ...

وإن رأينا إنساناً مثل القديس بولس الرسول ، قد تعب أكثر من جميع الرسل ، وكرز فى كل أرجاء الأرض ، فلا نظن أنه قد ولد هكذا ... وإنما هو نفسه يعترف و يقول : « أنا الذى كنت من قبل مجدفاً ومضطهداً للكنيسة ، ولكننى رحمت لأننى فعلت ذلك بجهل » (١تى ١: ١٣) ...

وإن عرفنا جباراً من جبابرة الروح والرعاية مثل القديس موسى النبي ، الذى أجرى الله على يديه معجزات فى أرض مصر ، وشق البحر بعصاه ، وضرب الصخرة ففجر منها الماء ، وأنزل من السماء المن والسلوى ... فلا نظن أنه قد ولد هكذا ... بل أنه عاش فى مبدأ حياته كأمير فى قصر فرعون ، بكل ما تحمل الإمارة من رفاهية وتنعم وكبر ياء ، معتداً بنفسه ، يضرب المصرى فيقتله . ولكن الله أمسك به ، وعلمه طريقه . أمسكه « إبن النجار » ، بالفارة والمنشار ، وأزال نتوءاته ، وصنفره ، وعمل فيه ، حتى صار قديساً عظيماً لا نستحق التراب الذى يدوسه بقدميه ... « وصار الرجل موسى حليماً جداً ، أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » (عد ١٢ : ٣) .

هذه عينات من الناس ، أخذها الله كما هى ، وعمل فيها ، وعمل معها ، وصارت له ، وأخذت من بهائه ، ومن قوته ...

وبالنسبة إليك ، لا تشابه القديسين فى ضعفاتهم ، وإنما فى طهرهم .

لا تتهاون معتذراً بأن القديسين أنفسهم قد أخطأوا ، إنما أنظر إلى توبتهم وأعماقها العجيبة ، وإلتصاقهم الطبيعى بالله .

*** وحينما نقول إنهم أخطأوا ، فلا نعنى أن حياتهم كلها كانت خطية . بل السقطات كانت الوضع العابر الطارىء فى حياتهم . أما القداسة فكانت الوضع الطبيعى الدائم .**

إذا عرفنا أن داود فى وقت ما ، قد زنى وقتل . فليس معنى هذا أن حياته كلها كانت زنى وقتلاً . وليس معنى هذا أن يتطاول بعض الوعاظ على هذا القديس العظيم ، ولا يتحدثون إلاَّ عن خطيئته بلون من الإستصغار !! و ينسون أنه رجل الصلاة والتسبيح والمزامير ، رجل المزمار والقيثار والعشرة الأوتار ، رجل الإيمان والوداعة ، الذى قال عنه الرب بنفسه « فحصت قلب داود ، فوجدته حسب قلبى » .

إن الشر لم يكن طبيعة فى هذا البار ، الذى حل عليه روح الرب ، والذى هزم جليات ، وإحتمل شاول ، وغفر لشمعى بن جيرا ، وسبح للرب تسابيح جديدة ... إنما هى صفات طارئة ، سمح بها الرب ليعطى قديسه إنسحاقاً ودموعاً ، و يصيره درساً فى التوبة ، كما كان درساً فى الصلاة ، وفى الوداعة ، وفى الشجاعة .

و بنفس الوضع حينما نذكر خوف أبينا إبراهيم ، وقوله عن إمرأته سارة إنها أخته ... لا ننسى أبداً إيمان الرجل ، ونسكه ، وشجاعته ، وكرمه ، وطاعته للرب حتى رفع السكين

ليقدم وحيده المحبوب محرقة ... ولا ننسى وتركه لأهله وعشيرته وسعيه وراء الرب ...

*** كذلك فى حديثنا عن قديسى الكتاب ، ليس المهم نقطة البدء فى حياتهم ، فربما بدأ البعض منهم كأشخاص عاديين . إنما المهم هوما إنتهوا إليه ...**

لقد كانت حياة هؤلاء القديسين ، مجرد مجال عمل فيه الله . ونحن نهتم بهذه النقطة بالذات فى حياة قديسى الكتاب ... يهمنا جداً دور الله فى حياتهم . كيف عاملهم الرب ؟ وكيف عامل غيرهم من الناس الذين إتصلوا بهم ؟ كيف كانت معاملة الله لقديسيه ، وكيف كانت معاملته للأشرار ؟ ومعاملته للساقطين والتائبين وللقائمين ...

إن الكتاب هوسجل جميل لمعاملة الله مع الناس ...

ومن واقع هذه المعاملة نأخذ فكرة عن صفات الله الجميلة ، وعن حبه وطول أناته ، وحكمته وصلاحه ، وقوته وقدرته ... ونأخذ من كل هذا درساً لأنفسنا ومجالاً لتأملاتنا .

*** وفى سير قديسى الكتاب ، لا نريد أن ندرس تاريخاً ، إنما أن نمتص حياة ...**

فالكتاب المقدس لم يقصد به أن يكون كتاب تاريخ ، إنما هو كتاب إيمان ، وكتاب حياة . وهذا هو الفرق بين دراستنا للكتاب ، ودراستنا لكتب التاريخ . التاريخ يذكر أحداثاً ، ولكننا هنا لا نفحص الأحداث ، بقدر ما نفحص حالة القلب .

إننا من خلال الأحداث ، ندرس النفس البشرية ، فى كل مشاعرها وأحاسيسها وتصرفاتها . ندخل إلى أعماق النفس ، وندرس حروبها الروحية ، وندرس علاقاتها مع الله ومع الناس ومع ذاتها . ومن كل ذلك نتعلم ...

والكتاب المقدس صريح جداً فى كشف النفس البشرية .

ونحن نريد أن نتناول هذه النفوس ، لكى نحللها ، ونفهمها ، ونرى فيها صورتنا نحن ، وما ينبغى أن نفعل . وفيما ندرس هذه الشخصيات ، ندرسها لكى نحيا نحن ...

نحيا من خلال حياة هؤلاء ، ونستفيد من تجاربهم ، ومن خبراتهم ، ونستفيد من سقوطهم أيضاً ومن قيامهم . وإن تعرضنا لأخطائهم ، فنحن لا ندينهم عليها . إنهم آباؤنا ومعلمونا ، بل هم أيضاً مُثلنا العليا . وهم أحباء الله الذين نرجو شفاعتهم و بركتهم ...

والأخطاء التى نكشفها ، إنما تكشف لنا ضعف طبيعتنا ، وليس ضعفاً لأولئك القديسين الذين لا نستحق أن نقبل التراب الذى داسوه بأقدامهم الطاهرة ...

بركة هؤلاء جميعاً ، فلتكن معنا ، آمين ...

-١-
آدم وحواء

أولا : بهاؤهما الأول
ثانيا : ٢٧ خطية وقعا فيها
ثالثاً، نتائج هذه الخطايا وعقوباتها

آدم وحـــواء

يحسن بنا أن نبدأ تأملاتنا فى شخصيات الكتاب بابوينا الأولين ، آدم وحواء ، ونرى كيف خُلقا وكيف كانا ، ومميزات طبيعتها الأولى فى عمق بهائها ومجدها ، وكيف قادهما الضعف البشرى ، وتطور بها من سقطة إلى أخرى ، حتى كثرت خطاياهما جداً ، وفسدت طبيعتها البشرية .

بهاؤهما الأول

١ ـ كانا مخلوقين ، غير مولودين ، لم يرثا فساداً من طبيعة سابقة :

آدم وحواء ، لم يولدا من دم ، ولا من مشيئة جسد ، ولا من مشيئة رجل ... لم يأتيا من زرع بشر ، ولم يرثا طبعاً فاسداً من طبيعة سابقة عليها ، إنما خلقها الله ، شيئاً جديداً لم يتلوث من قبل ، وبالطريقة التى أرادها الرب لهما .

٢ ـ خلقها الله على صورته ومثاله . ولا يمكن أن يوجد أعظم من هذا ، أن يكون آدم وحواء على شبه الله ...

وفى ذلك يسجل سفر التكوين « وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ... فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه . ذكراً وأنثى خلقهم » (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .

وما أكثر تأملات الآباء القديسين وتفسيراتهم ، الخاصة بخلق أبوينا الأولين على صورة الله ...

* قيل إن الله خلقها على صورته فى البر والقداسة ، فى وضع فائق للطبيعة ... وهكذا كان كلاهما باراً بلا خطية ، حينما خُلقها الله متسربلين بالقداسة ...

* وقيل على صورته فى الجمال والبهاء والمجد ، أى أعطاهما قبساً من بهائه ، فكانا فى منتهى الجمال ، جسداً ونفساً وروحاً ...

* وقيل إن الله خلق الإنسان على صورته فى الخلود ، إذ وهب لهما نفساً خالدة ، نفخها فى أنف آدم ، نسمة حياة ، فصار آدم نفساً حية (تك ٢ : ٧) .

* وقيل إن الله خلقهما على صورته فى حرية الإرادة .

* وقيل أيضا إن الإنسان خُلق على صورة الله فى التثليث والتوحيد : ذاتاً ، لها عقل ناطق ، ولها روح . والذات والعقل والروح كائن واحد : كالذات الإلهية ، لها عقل ، ولها روح ، والثلاثة كائن واحد ... إنما الله غير محدود فى كل شىء ، والإنسان محدود ...

* وقيل إن الله خلقهما على صورته فى الملك والسلطة . فكانا ملكين على الأرض ، لهما سلطة على كائناتها (تك ١ : ٢٨) . وكان آدم نائباً لله على الأرض ، وممثلاً للخليقة الأرضية كلها ...

* وقيل إن الله كان يعرف مسبقاً بسقوط الإنسان ، وبأنه سيخلى ذاته و يتجسد لكى يخلصه . فخلق هذا الإنسان على الصورة التى كان الله مزمعاً أن يتجسد بها ، على شبهه ومثاله ...

٣ ـ وكان آدم وحواء يتصفان بالبساطة والبراءة :

ما كانا يعرفان الشر إطلاقاً . كانا يعرفان الخير فقط ، ولا شىء سوى الخير . لذلك لم يفكرا وقت التجربة أن الحية يمكن أن تخدع وأن تكذب . فعبارات الكذب والخداع لم تكن موجودة فى قاموسهما فى ذلك الحينَ .

وفى بساطتهما وبراءتهما ، ما كانا يعرفان بعضهما من الناحية الجنسية ، بل كطفلين ساذجين ـ ما كانا يفهمان الفروق العضوية فى تركيب جسديهما . وكما ذكر سفر التكوين « وكانا كلاهما عريانين ، آدم وإمرأته ، وهما لا يخجلان » (تك ٢ : ٢٥) .

٤ ـ وقد باركهما الله معاً ، بنفس البركة ، وأعطاهما سلطاناً على الأرض كلها بجميع كائناتها ، نفس السلطة لكليهما ...

وفى ذلك يذكر سفر التكوين « وقال الله نعمل الإنسان كصورتنا ، فيتسلطون على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى البهائم ، وعلى كل الأرض ، وعلى الدبابات التى تدب على الأرض » (تك ١ : ٢٨) .

وهكذا عاش الإثنان ، ولهما هيبة وسلطة ، على الأرض ومخلوقاتها . ما كانا يخافان الوحوش أو دبيب الأرض ، بل عاشا وسط الأسود والنمور والفهود والحيات والثعابين وما أشبه ، فى حياة من الألفة والسلام ، لهما سلطان على كل هؤلاء . ترى الوحوش فيهما صورة الله ، فتعاملهما بالمهابة اللائقة بهما .

وآدم هو الذى سمى كل الحيوانات وكل ذوات الأنفس بأسمائها « وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية ، فهو إسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء ، وجميع حيوانات البرية » (تك ٢ : ١٩ ، ٢٠) .

٥ - وكان آدم وحواء إجتماعيين ، يتعاونان معاً ...

حينما كان آدم وحده فى الجنة ، وجد التعاون والألفة بين جميع حيوانات الأرض « وأما لنفسه ، فلم يجد معيناً نظيره » (تك ٢ : ٢١) . وصعد هذا الإشتياق ، أو هذا الإحتياج إلى الله « فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام . فاخذا واحدة من أضلاعه ، وملأ مكانها لحماً . وبنى الرب الإله الضلع التى آخذها من آدم إمرأة ، وأحضرها إلى آدم » (تك٢ : ٢١ ، ٢٢) .

وشعر آدم بهذه الرابطة القوية التى تربطه بحواء ، وإنها جزء منه ، بينهما رابطة دم ولحم وعظم . « فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامى ، ولحم من لحمى . هذه تدعى إمرأة ، لأنها من إمرء أُخذت » (تك٢ : ٢٣) .

٦ - ونحن نعجب من هذه المعرفة التى كان لآدم :

* كيف عرف أن حواء ، قد أخذت من لحمه ومن عظامه ، بينما كان فى سبات ... ؟! هل أخبره الله بما حدث ، فى ظل علاقة المحبة بينه وبين الله ؟ أم كان هذا اللون من المعرفة ، من ضمن مواهبه فى ذلك الوقت ، الذى خلق فيه بوضع فائق للطبيعة ...؟!

* كما أننا نعجب بآدم إذ أنه أعطى حواء إسماً له دلالة وله عمق ، فسماها إمرأة ، لأنها من إمرء أُخذت .

وفيما بعد ... بعد الخطية ، حينما ولدت إمرأته إبناً ، أعطاها إسماً آخر : « ودعا آدم إسم إمرأته حواء ، لأنها أم كل حى » (تك٣ : ٢٠) . إنها حكمة إتصف بها آدم فى إطلاق الأسماء . ولعله إستخدم هذه الحكمة ذاتها فى تسمية الحيوانات والطيور وكل ذوات الأنفس الحية .

ليت أحد المتخصصين فى علوم اللغات ، يبحث مع بعض المتخصصين فى علوم الحيوان ، السر الذى يكمن وراء أسماء الحيوانات ، والحكمة التى بها أطلق آدم كل إسم على صاحبه ...

* كان آدم أيضاً يعمل فى الجنة ويحفظها (تك٣ : ١٥) . فمن أين أوتى آدم هذه

المعرفة بشئون كل النباتات الموجودة فى الجنة ، أتراه أيضاً لون من الكشف الإلهى ، أو كانت معرفة آدم من نوع فائق لمعرفتنا ؟!

٧ ـ وقد خُلق آدم وحواء بعد أن أعد الله لهما كل شىء .

خلقهما فى اليوم السادس ، كقمة لمخلوقاته كلها . وخلقهما بعد أن خلق من أجلهما كل شىء ، كما فى القداس الغر يغورى . من أجلهما أعد السماء لهما سقفاً ، ومهد لهما الأرض كى يمشيا عليها . رتب لهما قوانين الفلك ، ووضع لهما الشمس لضياء النهار ، والقمر لإضاءة الليل . ونظم لهما الطبيعة واجواءها ، وخلق لهما النبات لطعامهما ، والحيوانات لخدمتها . وأخيراً خلقهما ، ليتمتعا بهذه الطبيعة كلها .

وعندما تنتهى فترة إقامة البشر ية على الأرض ، و يأتى الرب على السحاب ، ليأخذ باقى البشر ، و يسكن الإنسان فى الأبدية ، حينئذ ستزول هذه الأرض وهذه السماء اللتان خلقهما الله ، لراحة الإنسان ههنا . إذ سيزول غرضهما بإنتقال الإنسان إلى جوار الله فى أورشليم السمائية .

ما أعظم قيمة هذا الإنسان ، الذى من أجله خلق الله كل شىء . آدم صورة الله ، أعظم كائن على الأرض فى أيامه ، نائب الله ، المسلط منه على كل الخليقة الأرضية ...

٨ ـ وكان آدم وحواء سعيدين ، يعيشان فى جنة :

خلق الله جنة جميلة ، لكى يحيا فيها هذا الإنسان سعيداً « غرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً . ووضع هناك آدم الذى جبله » (تك ٢ : ٨) . و يشرح سفر التكو ين بعض تفاصيل هذه الجنة ، فيقول « وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة ، وشجرة معرفة الخير والشر . وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة » (تك ٢ : ٩ ، ١٠) .

كان آدم سعيداً هو وحواء داخل الجنة . لم يكن هناك ما ينقصهما ، ولم يكن هناك ما يعكر صفوهما . كان كل شىء حولهما جميلاً ، وعاشا فى اليوم السابع ، اليوم الذى قدسه الرب ، واتخذه للراحة ، له ولهما .

وهذه الطبيعة الجميلة الهادئة النقية التى خلقها الله لآدم وحواء ، يقول عنها الكتاب « ورأى الله كل ما عمله ، فإذا هو حسن جداً » (تك ١ : ٣١) .

٩ ـ وعاش آدم أيضاً فى عشرة الله ...

لم تكن سعادة هذا الإنسان الأول ، من مجرد خلقة فى طبيعة ممتازة ، أو من سلطته على هذه الطبيعة ، أو من حياته فى جنة جميلة ، إنما لعل السبب الأول فى سعادته ، أنه كان يحيا فى عشرة الله ... الله كان يظهر له ، وكان يكلمه ، وكان يباركه ، وكان يعلمه بنفسه و يقدم له الوصايا النافعة له .

كانت له علاقة مباشرة مع الله ، يشرحها سفر التكوين « نفخ فى أنفه نسمة حياة » « وأخذ الرب الإله آدم و وضعه فى جنة عدن » وأحضر « الحيوانات » إلى آدم ليرى ماذا يدعوها » « و باركهم الله وقال لهم : « أثمروا وأكثروا وأملأوا الأرض » « وأوصى الرب الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً . وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها » .

١٠ ـ وقد عاش آدم وحواء فى الجنة نباتيين ...

*** إن أكل اللحوم لم يسمح به الله إلاّ فى أيام نوح ، بعد خروجه وأسرته من الفلك** ، إذ يذكر سفر التكوين إن الله بارك نوحا و بنيه بنفس بركة آدم وحواء ، تقريباً ، وقال لهم « كل دابة حية تكون لكم طعاماً . كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع ، غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه » (تك ٩ : ٣ ، ٤) .

أما ما قبل فلك نوح ، فلم يكن مصرحاً بغير النبات ... وهذا ما يذكره سفر التكوين :

* لما خلق الله آدم وحواء ، سمح لهما بأكل الفاكهة والبقول ، أى ثمار الأشجار ، وذلك بقوله « إنى قد أعطيتكم كل بقل يبذر بذراً على وجه كل الأرض ، وكل شجر فيه ثمر شجر يبذر بذراً ، لكم يكون طعاماً » . « ولكل حيوان الأرض ، وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية ، أعطيت كل عشب أخضر طعاماً ، وكان كذلك » . (تك ١ : ٢٩ ، ٣٠) .

*** إذن لم يكن الإنسان وحده نباتياً فى الجنة ، وإنما حتى الحيوانات أيضاً بكل أنواعها كانت نباتية :** للإنسان الثمار والبقول ، وللحيوان العشب الأخضر . لم يكن هناك إفتراس . لا الإنسان يأكل الحيوان ، ولا الحيوان يأكل الإنسان ، ولا الحيوان يأكل بعضه بعضاً .

* وبعد السقوط فى الخطية : لما حدث أن الإنسان ، كالحيوان إشتهى أن يأكل ، أعطاه الله الطعام المخصص للحيوان ، عشب الأرض . فقال الرب للإنسان بعد السقوط « وتأكل عشب الأرض » (تك٣: ١٨) ، وكان العشب مخصصاً للحيوان من قبل (تك١: ٣٠) .

بقى الإنسان بعد السقوط نباتياً ، يأكل ثمار الشجر والبقول والعشب ، بعد طرده من الجنة ، دون أن يأكل اللحوم ، التى لم يصرح له بعدها ، إلاَّ بعد فلك نوح (تك٩: ٣) .

* ومع ذلك كانت الأعمار طويلة جداً ، فى تلك الفترة من آدم حتى نوح ، كما يشرح الأصحاح الخامس من سفر التكوين :

عاش آدم ٩٣٠ سنة (تك ٥ : ٥) ، وعاش نوح ٩٥٠ سنة (تك٩: ٢٩) . وعاش متوشالح ٩٦٩ سنة (تك٥: ٢٧) ، وهو صاحب أطول عمر فى كل أجيال البشرية ، وكان نباتياً .

*** لماذا إذن صرح الله بأكل اللحوم بعد فلك نوح ؟**

يقول الكتاب « قبل الطوفان مباشرة » « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض ، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض » (تك٦: ٥،٦) . وهكذا أغرق الرب العالم بالطوفان . وأبقى الرب بقية من البشرية . وسمح لها بأكل اللحوم ، لأن مستوى البشر لم يكن يحتمل غير هذا ...

خطايا عديدة لأبوينا الأولين

كانت طبيعتها سامية جداً ، ولكنها كانا يتمتعان فى نفس الوقت بحرية الإرادة ، وبالحرية توجد إمكانية السقوط .

والعجيب أن كثيراً من الكتاب يتحدثون عن خطية آدم أو حواء ، كما لو كانت خطية واحدة لا غير!! بينما وقع أبوانا فى عديد من الخطايا ، نذكر منها هنا ٢٧ خطية ، بنوع من التحليل ، لكى نتعلم نحن أيضاً التدقيق فى محاسبتنا لأنفسنا ... فما هى هذه الخطايا ؟

١ - العصيان أو المخالفة

وهذه هى الخطية الواضحة للكل . إن الله أمر أبانا آدم قائلاً : « من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً . وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك٢ : ١٦ ، ١٧) . الوصية واضحة ، وقد سمعها آدم بنفسه من فم الله . وكانت تحفظها حواء (تك٣ : ٢) . ومع ذلك خالفها آدم وخالفتها حواء .

لو لم ينذر الله آدم وحواء من قبل ، لقلنا إنها كانت خطية جهل . ولكن من الواضح أنها خطية معرفة .

٢ - المعاشرات الرديئة

بدأت سلسلة الخطايا التى وقع فيها آدم وحواء بخطية « المعاشرات الرديئة التى تفسد الأخلاق الجيدة » (١ كو ١٥ : ٣٣) . فجلست أمنا حواء مع الحية « وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله » (تك٣ : ١) .

وحتى إن كانت أمنا حواء ، بنقاوة قلبها وبساطتها ، لا تدرك ما فى الحية من خبث ، فإنه كان يجب عليها أن تتنبه ، حينما أخذت الحية تكشف أوراقها ، وتقول كلاماً عكس ما قاله الله نفسه لها !!

ولكن أمنا القديسة بدلاً من أن تتنبه ، وقعت فى خطية الإنقياد ، ووقعت أيضاً فى خطية الشك . وقادتها هاتان الخطيتان إلى سقطات أخرى كثيرة .

٣ ـ خطية الشك

قالت الحية فى خبث وهى تبذر بذور الشك « أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟! » ... أحقاً أن الله الرحيم الطيب يمنعكما عن الأكل من كل الشجر؟ وماذا يضيره لو جعلكما تأكلان؟ أى شر فى هذا؟!

فلما أجابت المرأة حسناً ، أخذت الحية تتعمق فى إلقاء بذور الشك ، فقالت « كلا ، لن تموتا ، بل الله عالم إنكما يوم تأكلان تتفتح أعينكما ، وتكونان مثل الله عارفين الخير والشر » ... إذن الله خائف من أن تصيرا مثله ، لذلك يمنعكما ... ليس حباً منه لكما ، أو حرصاً عليكما ، إنما خشية من المنافسة ...

هذا هو الشك الذى ألقته الحية فى نفس حواء :

الشك فى صدق كلام الله ، والشك فى حب الله للبشر، بل الشك أيضاً فى إنذار الله لها بالموت . فها ـ حسب كلام الحية ـ لن يموتا ، بل ستتحسن أحوالها ...

وإستسلمت حواء إلى هذا الشك ، فسلمها إلى خطيئة أخرى :

٤ ـ خطية الانقياد

إنقادت ـ وهى صورة الله ومثاله ـ إلى الحية ومشورتها . فبدلاً من أن تنتهر الحية على التشكيك فى كلام الله ، أطاعتها ، وبهذا فقدت شخصيتها أمام الحية ، بينما كان الله قد أعطاها سلطاناً على جميع حيوانات الأرض وعلى ما يدب على الأرض ، فكانت الحية بذلك تحت سلطانها ، وكانت تملك أن تخضعها ، حسب قول الرب عن هذه الكائنات « وأخضعوها » (تك ١ : ٢٨) . فبدلاً من إخضاعها . خضعت لها .

ونفس هذا الإنقياد الخاطىء ، الذى وقعت فيها حواء ، حدث بالنسبة إلى أبينا آدم من جهة إمرأته حواء ، بينما الرجل رأس المرأة . وكان يجب على آدم أن يقود حواء إلى الخير، و يرفض أن يأكل الثمرة المحرمة من يدها ، ولكنه إنقاد هو أيضاً وأطاع . ووقع فى نفس ضعف الشخصية الذى وقعت فيه حواء .

لذلك فإن الله لم يقبل من حواء عبارة « الحية أغرتنى » . ولم يقبل من آدم عبارة « المرأة أعطتنى » .

كان يجب على كل منها أن يكون قوى الشخصية ، ولا يقبل من غيره أية نصيحة أو أى توجيه ضد وصية الله الواضحة .

وكان إنقياد حواء للحية ، يجمل داخله خطية أخرى هى :

٥ـ ضعف الايمان

إنقياد حواء للحية ، معناه أنها قبلت كلامها أكثر من كلام الله ، أو قل إنها صدقت الحية وكذبت الله . الله يقول عن ثمر الشجرة « لا تأكلا منه ولا تمساه ، لئلا تموتا » (تك ٣ : ٣) . والحية تقول « كلا ، لن تموتا » . والمرأة تقبل كلام الحية ، وتميل إليه بقلبها ، وتترك كلام الله ، لا تخشاه ، ولا يتعبها إنذاره ...

إذن فهذا ضعف إيمان بالله وبكلمته وبإنذاره . بل هو عدم إيمان بصدق الله ...

وضعف الإيمان هذا ، قادها إلى خطية أخرى وهى :

٦ـ الاستهانة وعدم مخافة الرب

بدأت تستهين بحكم الله وبتهديده وعقوبته ، ولم تخف إطلاقاً من أن تمد يدها وتأخذ ، كما لو كانت عبارة « موتاً تموتا » ، لا تهزها جفناً ، ولا تحرك ضميرها أو قلبها ... !

على أن إغراء الحية وحديثها ، قاد المرأة إلى خطية أخرى ، دنست قلبها الطاهر ، وهى خطية الشهوة .

٧ـ خطية الشهوة

نظرت المرأة إلى الشجرة ، فإذا هى « جيدة للأكل ، وبهجة للعيون ، وإذا الشجرة شهية للنظر » ... فإشتهتها ...

كانت شجرة معرفة الخير والشر فى وسط الجنة ، وربما كانت حواء تمر عليها كل يوم وتراها . وكانت نظرتها إليها بسيطة ، لا تحمل شهوة ...

أما الآن فإن النظرة قد تغيرت ، لم تعد بسيطة كما كانت أمس وقبلاً من أمس ، ذلك لأن القلب قد تغير...

القلب قد دخلته شهوة ، فأصبحت نظرته إلى الشجرة مشبعة بالشهوة . و بالشهوة صارت الشجرة شيئاً آخر مشتهى ، بل شيئاً مفضلاً على الكل ، حتى على وصية الله . صارت الشجرة « جيدة للأكل ، وبهجة للعيون ، وشهية للنظر » ...

لماذا ؟ لأن خطية أخرى قد دخلت القلب ... فما هى ؟

٨ - خطية الكبرياء

« يوم تأكلان منها تتفتح أعينكما وتصيران مثل الله ... » . هنا الإغراء الجبار «تصيران مثل الله » أو تصيران إلهين ... !! إن كان الأمر هكذا ، فلماذا نرضى ونكتفى بالمستوى البشرى ؟! ولماذا نأخذ من الله موقف الطاعة ، بدلاً من موقف المساواة ؟! وعصفت شهوة الألوهية بهذه الإنسانة المسكينة فدخلتها الكبر ياء .

وأستطاعت هذه الكبر ياء أن تحطمها ، كما حطمت الشيطان من قبل **لأنه أراد أن يقع الإنسان فى نفس السقطة التى وقع فيها** ... وماذا كانت سقطته ؟ يحكيها سفر أشعياء النبي فيقول :

« كيف قطعت إلى الأرض يا قاهر الأمم ؟ وأنت قلت فى قلبك : أصعد إلى السموات ، أرفع كرسى فوق كواكب الله ... أصعد فوق مرتفعات السحاب ، أصير مثل العلى . لكنك إنحدرت إلى الهاو ية ، إلى أسافل الجب » (أش ١٤ : ١٢-١٥) .

إن عبارة « أصير مثل العلى » التى قالها فى قلبه ، هى نفس عبارة «تصيران مثل الله » التى أغرى بها حواء ...

إن الكبر ياء هى التى أسقطت الشيطان ، وهى التى أسقطت الإنسان الأول . وكما قال أحد القديسين : إن حواء إشتهت مجد الألوهية ، ففقدت ما كان لها من مجد البشر ية .

على أن هذه السقطة ، وهذه الكبر ياء ، كانت تحمل فى داخلها شهوة أخرى ، أو خطية أخرى ، وهى ...

٩- المعرفة المخربة

« تصيران مثل الله ، عارفين الخير والشر » « تنفتح أعينكما » ... لقد قدم الشيطان للإنسان هذا الإغراء ، إغراء المعرفة ... إلى متى تظل مقفل العينين لا تعرف ؟ ليتك تأكل لكى تنفتح عيناك المغمضتان ، وتذوق الدنيا وتعرفها ...

إلى متى يغلق الله عليكما فى هذه البساطة أو السذاجة ، التى يسمونها النقاوة أو البراءة !! فتظلان هكذا لا تدريان ولا تفهمان الجمال الموجود فى الدنيا ، واللذة الموجودة فى الثمرة ؟! لماذا يحرمكما الله من هذه المعرفة ؟!

أية معرفة يقصدها الشيطان ؟ لقد وهبها الله فضل معرفته ، وجعلها يعرفان الخير والبر و يذوقان ما فى هذه المعرفة من لذة . يجيب الشيطان إنها حرما من معرفة الخير والشر .

وهنا تبدو الخدعة الكبرى التى إنطلق على حواء ... فما هى ؟

إنها يعرفان الخير فقط . والشيطان يريد لها الآن « معرفة الخير والشر » ، أى أن تضاف إلى معرفتها النقية ، معرفة الشر... !

يا للخدعة الخبيثة ، التى قال عنها الحكيم « الذى يزداد علماً ، يزداد غماً » (جا ١ : ١٨) ، يقصد المعارف التى تشوه نقاوة الإنسان ، أو تربك سلامة فكره...

وأكل الإنسان من شجرة المعرفة ، فصار جاهلاً ... لأنه أخذ معرفة الشر إلى جوار معرفة الخير ، وماذا أصابه أيضاً ؟

١٠- مشكلة الثنائية وفقدان الثقة

ومن ذلك اليوم ، والإنسان يعيش معذباً ، يسبح فى بحر العالم ، يحيطه شاطئان :

وللأسف ، فإن معرفة الشر عند كثيرين ، أرتبطت بشهوة الشر ، أو على الأقل أرتبطت بالصراع بين الخير والشر . وعاش الإنسان حياته فى هذا الصراع ، وتشوهت أفكاره بمعرفة الشر ، وجلبت له هذه المعرفة الظنون والأفكار ، ووضعت فى عقله الواعى أو عقله الباطن صوراً متعبة ، تظهر أحياناً كأحلام ، وأحياناً كشكوك وظنون ، وأحياناً كإدانة للآخرين ، أو كإشمئزاز من وضع معين ، أو كخوف من سقوط ... أو أرتياب فى نقاوة .

ولما أكلت حواء من شجرة المعرفة هذه ، بدأت ترى آدم رجلاً يختلف عن أنوثتها . وبدأ آدم يراها أنثى تختلف عن رجولته . وبدأ الجنس يفتح أبوابه .

وكان أول باب هو الخجل . وأحس آدم وحواء أنهما عريانان ، وفكرا كيف يستران عريهما ... وفقد الإثنان بساطتهما الأولى ...

ما كان أغناهما عن هذا كله ، لو أنهما لم يطلبا هذه المعرفة ، أو على الأقل طلبا المعرفة من الله وحده . ولكنهما وقعا فى خطية أخرى وهى :

١١ ـ طلب المعرفة من غير الله

كان الله هو المعلم الأول والوحيد للإنسان ، يعطيه من المعرفة ما يفيده وما يبقى على نقاوته .

ثم بدأ الإنسان يتخذ له مرشداً غير الله ، يشير عليه بما يفعل ، ويعطيه معرفة أخرى . وكان هذا المرشد للأسف ، هو الشيطان الذى دخل الحية ، وأرشد الإنسان إلى ما فيه هلاكه ...

وشهوة المعرفة ، بعيدة عن الله ، ومن غير الله ، ملأت الإنسان بمعارف ضيعته . ومازال الإنسان يسعى إلى المعرفة منذ أكل من الشجرة . وفى كل يوم تنفتح عيناه بالأكثر... وتجمع *له الحواس أحياناً ما يضره* ...

و يستمر فى ثنائية المعرفة ، التى تشمل الخير والشر ، إلى أن يهب له الله فى الأبدية إكليل البر ، فيتقيأ ما أكله من معرفة الخير والشر ، و يعود لا يعرف غير الخير وحده ، و ينسى فى النعيم الأبدى ما كان قد عرفه فى العالم من شر . يمحو الله من ذاكرته ومن علمه ومعرفته كل معرفة الشر فى الإنسان الجديد الذى يقوم من الأموات فى نقاوة لا تعرف شراً .

و يصير الجميع متعلمين من الله (يو٦ : ٤٥) . ولا يعود الشيطان يعلم و يرشد يلقى أفكاره فى عقول الناس ... بل فى الأبدية سنأخذ معرفة بديلة ، هى معرفة الله الذى يكشف لنا ذاته . وكما قال ربنا يسوع المسيح لله الآب « هذه هى الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحده ، و يسوع المسيح الذى أرسلته » (يو١٧ : ٣) .

حينئذ يكون الله هو مصدر معرفتنا ، وقمة معرفتنا ، وتبطل مشورة الشيطان الذى أسقط أمنا حواء فى القديم ، فأكلت ...

وظهرت فى أكلها خطيئة أخرى وهى :

١٢ ـ حفظ الوصية عقلا لاعملاً

كانت حواء تحفظ الوصية حفظاً عقلياً ! لذلك عندما سألتها الحية « أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ » ، صححت لها حواء منطوق الآية، وذكرت تفاصيلها ، فقالت للحية « من ثمر شجر الجنة نأكل . وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة ، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا » . إنه حفظ دقيق لم يكتف بالمنع عن الأكل ، بل عن اللمس أيضاً ...

والعجيب أنها فى نفس الوقت الذى ذكرت فيه الوصية بهذه الدقة العجيبة ، عادت وكسرت الوصية ، ومدت يدها وقطفت وأكلت ... ! لقد حفظت الوصية عقلاً لا عملاً ...

إنها تذكرنى بالشاب الغنى الذى كان يحفظ الوصايا ، وقال عنها للسيد الرب « هذه حفظتها منذ حداثتى » . وفى نفس المناسبة مضى حزيناً ، لأنه كان يعبد إلهاً آخر هو المال ، بينما تقول الوصية الأولى « لا تكن لك آلهة أخرى أمامى » (خر ٢٠ : ٣) .

وفى الأكل من الشجرة ، وقعت حواء ، كما وقع آدم أيضاً فى خطية أخرى وهى :

١٣ ـ الإنحدار الى المستوى الجسدانى

الأكل ، وشهوة الأكل ، والنظر إلى الشجرة على أنها « جيدة للأكل » ... كلها أمور جسدانية إنحدر إليها آدم وحواء ، بأسباب نفسانية ، سقطا بها عن المستوى الروحى .

ولذلك أعتبر البعض أن الوصية الأولى التى أعطيت للإنسان ، كانت وصية صوم ، تشبه صومنا فى هذه الأيام ، نأكل من الكل ماعدا نوع واحد وهو الأطعمة الحيوانية . كذلك أعطى لآدم وحواء أن يأكلا من الكل ماعدا نوع واحد هو ثمر هذه الشجرة .

ولكن آدم وحواء كسرا هذا الصوم ، وأكلا من هذا الصنف المحرم . وبالأكل سقطا من المستوى الروحى إلى المستوى الجسدى .

وبهذا السقوط ، إستمرت معها حروب الجسد فيما بعد . حتى أن بعض العقوبات التى فرضها الله عليها ، كانت تحمل إشارة إلى هذا المستوى الجسدانى الذى هبطا إليه :

قال للمرأة « تكثيرا أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولاداً » .
وقال لآدم « لأنك سمعت لقول إمرأتك ، وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ... بعرق جبينك تأكل خبزاً ... وتأكل عشب الأرض » (تك٣: ١٦-١٩) .

هذه عقوبة الأكل . على أنه فى الأكل من الشجرة كانت توجد خطية أخرى :

١٤- عدم القناعة

الله أعطى أبوينا الأولين أن يأكلا من كل شجر الجنة ، ماعدا واحدة . ولا شك أنه كانت توجد أثمار كثيرة جداً فى الجنة ، بل كان فيها كل نوع ثمر ... ولكن هذا كله لم يقتنع به آدم وحواء ولم يكفيها ، بل أرادا الأكل من هذا النوع الواحد الناقص . وهذا يدل على عدم القناعة .

ومازال مرض عدم القناعة موروثاً حتى الآن « العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلىء من السمع » « وكل الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس بملآن » (جا ١ : ٨، ٧) .
على أن حواء فى أكلها من الثمرة المحرمة ، لم تقع فقط فى كل هذه الخطايا ، إنما أضافت إليها خطية أخرى وهى :

١٥- إعثار الآخرين

لم يقتصر أمرها على كسر الوصية والأكل من الشجرة ، وإنما يقول الكتاب إنها « أكلت ، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل »
الخطأ ، وقادته إلى كسر الوصية ، وكانت سبباً فى ضياعه ، ووضعت أول بذرة للعثرة ، ولإعثار الآخرين ...

والعجيب أن البعض يظنون أن خطية آدم وحواء هى مجرد الأكل من الشجرة ! فعلى الرغم من كل الخطايا التى ذكرناها ، توجد خطايا أخرى كثيرة أرتكبها أبوانا بعد الأكل من الشجرة .

فما هى هذه الخطايا ؟

١٦ - تغطية الخطية بأوراق التين

لما أكلا « إنفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانان » ، إذ فقدا نقاوتهما ، وفقدا بساطتهما الأولى . فبدلا من معالجة الخطية والتخلص منها ، والرجوع إلى النقاوة الأولى ، قاما بتغطية الخطية بأوراق التين . وهكذا تغطى آدم وحواء ، ولكن بقى القلب من الداخل غير سليم ، والشعور كما هو...

وأصبحت أوراق التين ترمز إلى تغطية الخطية ، دون التخلص منها .

ولهذا نرى أن الرب لم يوافق على فكرة أوراق التين . « صنع الرب الإله لآدم ولإمرأته أقمصة من جلد وألبسهما » (تك٣ : ٢١) .

ومن أين أتت أقمصة الجلد ؟ لعلها أتت من ذبيحة ، سُفك دمها لأجلهما ، وتغطيا بجلدها . وهنا بدأ الرمز العميق :

الخطية تعرى الإنسان وتخجله ، والذبيحة تغطيه وتستره ، بل وتطهره ...

إنه معنى ربما يكونان قد عرفاه بسيطاً فى بادىء الأمر ، وأتى التعمق فيه على مر الزمن فيما بعد .

بعد الخطية ، شعر آدم وحواء بالعرى ، وبالخزى ، فإستترا بأوراق التين ... وماذا بعد ؟ لقد وقعا فى خطية أخرى كبيرة وهى :

١٧ - الهروب من الله

« سمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة ،عند هبوب ريح النهار ، فإختباء آدم وإمرأته من وجه الله فى وسط شجر الجنة » (تك٣ : ٨) .

أصبح هناك تباعد بينهما و بين الله ... وجدت هوة فاصلة ... لم يعودا يفرحان بالوجود فى حضرة الرب . فحالما سمعا صوته مقبلاً ، هربا من وجهه وأختفيا ...

وصار الهروب من الله خطية موروثة فى نسل آدم وحواء . فما أن يقع الإنسان فى الخطية ، حتى يبدأ فى سلسلة من الهروب : يهرب من الصلاة ، لأنه يخجل من الكلام مع الله وهو فى الخطية ! ويهرب من الكنيسة ، ومن أب الاعتراف ، ومن الإجتماعات الروحية ، ومن الأصدقاء الروحيين ، إلى أن يقطع كل صلة له بالله ... !

ولعل الهروب من الله ، بالنسبة إلى آدم وحواء ، قد دفعت إليه خطية أخرى وهى الخوف .

١٨ - الخوف

والخوف إن لم يكن خطية فى حد ذاته ، فعلى الأقل هو إنحدار فى المستوى ، إنحدار من مستوى الحب الإلهى الذى كانا يعيشان فيه . و يقول القديس يوحنا الرسول « لا خوف فى المحبة ، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج . لأن الخوف له عذاب . وأما من خاف ، فلم يتكمل فى المحبة » (١يو٤ : ١٨) .

وواضح من إجابة أبينا آدم أنه خائف . ولا نقصد المخافة التى تحمل مهابة الله ، وإنما الخوف بمعناه الحرفى ، الذى يدعو إلى الهرب والإختفاء . وفى هذا يقول للرب « سمعت صوتك فى الجنة فخشيت ، لأنى عريان فإختبأت » (تك٣ : ١٠) .

وبالنسبة إلى آدم وحواء ، لا نقول فقط إنها نزلا من مستوى الحب ، بل عملا أعمالاً ضد محبة الله .

١٩ - الخروج من محبة الله

* لا شك أن كسر الوصية كان عملاً ضد محبة الله . لأن الرب يقول « الذى عنده وصاياى ويحفظها فهو الذى يحبنى » (يو١٤ : ٢١) . و يقول القديس يوحنا الحبيب « من قال قد عرفته ، وهو لا يحفظ وصاياه ، فهو كاذب وليس الحق فيه . وأما من حفظ كلمته ، فحقاً فى هذا قد تكملت محبة الله » (١يو٣ : ٤) . إذن كسر الوصية ضد المحبة .

* ورغبة آدم وحواء فى أن يصيرا « مثل الله » حسب إغراء الحية ، كان عملاً آخر ضد محبتها لله .

* وتصديق كلام الحية ، عكس كلام الله ، كان أيضاً عملاً ضد محبة أبو ينا الأولين لله .

* وفى مناقشتها مع الله ، كانت الطريقة لا تتفق والمحبة .

* وهروبها من وجه الله ، وإختفاؤهما ، كان عملاً رابعاً منهما ضد محبة الله .

كذلك فى خوف أبو ينا وأختبائهما ، وقعا فى خطية أخرى ، وهى عدم السعى للصلح مع الله .

٢٠ ـ عدم السعى الى الخلاص

إنها إنسانان قد كسرا وصية الله ، وأصبح محكوماً عليها بالموت . فماذا فعلا للتخلص من حكم الموت هذا ؟ هل سعيا إلى الخلاص ؟ هل بذلا جهدهما لكى يصطلحا مع الله و ولكى يعودا إلى علاقة الحب الأولى ؟ كلا .

لقد شل الخوف تفكيرهما ، فلم يقوما بأى عمل من أجل خلاص نفسيهما الهالكتين ، إنما أسرعا بالإختفاء من وجه الله .

وفى الإختفاء من وجه الله فى وسط الشجرة وقعا فى خطية أخرى وهى الجهل بالله وقدرته ...

٢١ ـ الجهل بالله وقدرته

إلى أين يهرب هذان المسكينان من وجه الرب ؟ وأين يختفيان ؟ لقد كان حفيدهما داود أكثر معرفة بالله حينما قال :

« أين أذهب من وجهك ؟ ومن وجهك أين أهرب ؟ إن صعدت إلى السموات فأنت هناك . وإن فرشت فى الهاوية فها أنت ... » (مز ١٣٩ : ٧ ، ٨) ... فما معنى الإختباء وسط الشجر إذن ؟!

هل الشجر يخفيها عن عين الله الفاحصة الخفيات والظاهرات ؟ أم أنها جهلا قدرة الله

على كل شيء ...

حقاً إن الإنسان لما أكل من شجرة المعرفة صار جاهلاً ، لقد وعده الشيطان وعداً زائفاً لم يبر به ...

وفى المناقشة بين الله وأبوينا الأولين ، نرى فى أجابتها عدداً كبيراً من الأخطاء ، منها :

٢٢ـ عدم إدانة النفس

إن كان هذا الإنسان قد أكل من شجرة المعرفة ، وعرف الخير والشر ، فعلى الأقل أصبح يعرف أنه قد أخطأ .

ولكن كلمة « أخطأت » لم يقلها آدم إطلاقاً ، ولم تقلها حواء .

لم يعترف أحد منهما بهذه الخطايا التى ذكرتاها ، ولا بشيء منها . لم يقم أحد منهما بإدانة نفسه ، ولم تكن لأى منهما حكمة القديس مقار يوس الكبير الذى قال : [أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك] ...

و يا ليتهما لم يدينا نفسيهما وصمتا ، بل أنهما وقعاً فى خطية أصعب ، وهى محاولة تبر ير النفس ...

٢٣ـ محاولة تبرير النفس

كل منهما حاول أن يبرر نفسه . حاول أن يوجد لنفسه عذراً أو أعذاراً يغطى به خطيته ، أو يقلل من الجرم الذى وقع فيه . ولم يقبل الله شيئاً من تبر يراتهما وأعذارهما ، لأن الخطية واضحة .

أمام الله يستد كل فم . وإن تكلم الإنسان ، فإنما ليعترف و يدين نفسه و يطلب الرحمة ، وليس غير. أما محاولة تبر ير النفس ، فهى نوع من المكابرة والكبر ياء .

وفى تبر ير كل من آدم وحواء لنفسه ، وقع فى خطية أخرى وهى إلقاء التبعة على الآخر ين .

٢٤ـ إلقاء التبعة على الآخرين

حواء ، تلقى التبعة على الحية فتقول « الحية غرتنى فأكلت » . وآدم يلقى التبعة على حواء « المرأة أعطتنى فأكلت » ...

ولا يلقى أحد منهما بالتبعة على نفسه ...

ولم يكن إلقاء التبعة على الآخرين عذراء مقبولاً : فآدم كان يستطيع أن يرفض الأكل ، ولا يسمع لحواء ، بل كان يستطيع أن يوبخها ، بل أكثر من هذا كان يمكنه أن ينصحها ويمنعها قبل الوقوع فى الخطية .

أما أن تقدم له من الثمرة فيأكل دون تفكير ، دون إمتناع ، ودون تذكر للوصية دون تذكر للعقوبة ، فهذا أمر لا يقبله أحد .

وحواء بالمثل ، كانت تستطيع أن ترفض إغراء الحية ...

وحينما القى آدم بالتبعة على حواء ، إنما وقع ضمناً فى خطية أخرى ، تخدش المحبة التى بينهما .

٢٥ـ ضد محبة القريب

كما كسر آدم محبته لله ، كسر أيضاً محبته للقريب . والقريب الوحيد هنا كان حواء . إتهمها أمام الله ، وحملها تبعة سقوطه فى الخطية .

وهكذا القى أول بذرة للخلافات الزوجية . ونشكر الله أن حواء لم ترد على آدم ، ولم تدخل معه فى مناقشة ، بل لزمت الصمت ، ومرت المشكلة من جهتها بسلام .

على أن إتهام آدم لحواء ، كان يحمل خطية أخرى :

٢٦ـ الإختفاء وراء امرأة

ما كان يليق بأبينا آدم ـ الرجل الأول فى البشرية أن يختفى وراء إمرأة لكى ينجو! يقدمها للإتهام ، ويحملها المسئولية ، لكى يتبرر هو!

الأمر المثالى ، أن يتحمل أخطاءها ، و ينسبها لنفسه ، كمسئول ، و ينجيها من

العقوبة ، و يتصدر الموقف و يتركها تختفى وراءه . يحمل خطاياها ، كما حمل المسيح خطايا عروسه الكنيسة ... لكن آدم فعل العكس .

لا أريد أن أعلق على الموقف بأكثر من هذا ...

٢٧ـ عدم اللياقة فى الحديث

وفى دفاع آدم عن نفسه بالقاء التبعة على المرأة ، فقد اللياقة اللازمة فى التحدث مع الله نفسه ... !

فلم يكتف بقولة « المرأة أعطتنى فأكلت » وإنما قال لله : « المرأة التى جعلتها معى ، هى أعطتنى » .

وكأنه بهذا يشرك الله فى المسئولية ، أو يجعل الله صاحب السبب فى سقوطه ، لأنه أعطاه المرأة التى أعطته الثمرة ... ! وكان تعبيراً غير لائق من جهة آداب الحديث مع الله . ولم يرد الله عليه ...

* * *

من هذه السقطات التى وقع فيها أبوانا الأولان نستنتج :

* أن الخطايا ليست عواقر ، وإنها تلد خطايا أخرى ... و يكفى أن يجر الإنسان أول الخيط ، لكى ينساب كله ، ويجد أن خطية تقوده إلى أخرى ...إلى غير إنتهاء ...

*** كذلك نستنتج أنه يلزمنا التدقيق فى محاسبتنا لأنفسنا وفى إعترافاتنا ...**

فربما نظن أننا إقترفنا شيئاً بسيطاً ، بينما هذا الشىء يحوى العديد من الخطايا ، التى ربما تُخفى عن معرفتنا ، ولكننا بقليل من التحليل ندركها ...

وها قد رأينا كيف سقط أبوانا آدم وحواء ، وكيف بدأ الفساد ينخر فى الطبيعة البشرية على مدى العصور ، حتى أتلفها تماماً .

بقى أن نتأمل نتائج السقطة الأولى للبشرية :

نتائج هذه الخطايا وعقوباتها

١ ـ اللعنة

*** اللعنة لم تصب آدم وحواء لسببين :**

أولاً : لأن الله كان قد باركهما قبلاً (تك ١ : ٨) وهبات الله بلا ندامه (رو١١ : ٩) ، ولا يرجع فيها مهما حدث . إنها لا تتوقف على أمانتنا ، بقدر ما تتوقف على جوده هو وكرمه ...

ثانياً : لأنه لو لعن آدم وحواء ، لكانت اللعنة قد أصابت الجنس البشرى كله ، الموجود فى صلبهما ، كما لعن فيما بعد كنعان فلعن كل نسله ، وكذلك قايين وكل نسله .

ولا يمكن أن يلعن الجنس البشرى كله ، ومنه سيأتى أنبياء وأبرار يباركهم الرب و يكونون بركة ... بل من نسل آدم سيأتى السيد المسيح ـ حسب الجسد ـ الذى سيسحق رأس الحية ، و به « تتبارك فيه جميع قبائل الأرض » (تك ٢٢ : ١٨) .

*** ولكن اللعنة أصابت الحية التى أغرت حواء بأكل الثمرة . كذلك أصابت اللعنة الأرض التى تخرج ثمراً للأكل :**

١ ـ فقال الله للحية « ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البر ية . على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك و بين المرأة ، و بين نسلك ونسلها . وهويسحق رأسك ،

ونلاحظ أن لعنة الحية ، كانت تحمل عقوبة ضمنية للإنسان .

أصبحت هناك عداوة بينه و بين الحية ، ولم توجد من قبل أية عداوة بينه و بين أحد من الخليقة كلها . كما أن سلطانه على الحيوان قد إهتز ، فصارت الحية تستطيع أن تسحق عقبه ، وتؤذيه ! وهو الذى كان ملكاً مسلطاً على كل أنواع الخليقة . وهكذا ضاع جزء من هيبته ومن سلطته ...

على أن سلطان الحية قد إهتز عندما أعطانا السيد المسيح سلطاناً أن ندوس الحيات والعقارب وكل قوة العدو . وإنتهى حينما سحق المسيح رأس الحية ... وعبارة « وتراباً

تأكلين كل أيام حياتك » ، فيها تعريض بالإنسان الذي قال له الرب في نفس المناسبة « أنت تراب وإلى التراب تعود » (تك ٤ : ١٩) .

الإنسان البار ، هو صورة الله ومثاله . أما الإنسان الخاطىء فهو تراب . وكتراب يصير طعاماً للحية ، لأنها تأكل تراباً كل أيام حياتها ... هذا هو المعنى الرمزى كما تأمله القديس أوغسطينوس ...

وفى داخل هذه العقوبة التى أوقعها الله على الحية ، وضمناً على الإنسان ، كان يوجد الوعد بالخلاص ...

وعد بأن نسل المرأة سيسحق رأس الحية . وهذه كانت أول نبوءة عن مجيء السيد المسيح لخلاصنا .

و يُظهر لنا هذا الوعد حنو الله على الخطاة ، و يز يده عمقاً أنه وعد بالخلاص ، وعد به الله فيما هو يعاقب و يقتص من الخطية . حقاً إن عدله مملوء رحمة ، وأنه رحيم فى عدله ، وصفاته لا تنفصل عن بعضها البعض ...

إن الله لم يلعن الإنسان ، ولكنه لعن الحية التى أغوت الإنسان ، وكانت فى لعنتها ، عقوبة ضمنية للإنسان . كذلك لعن الله الأرض التى يعيش عليها الإنسان .

*** وفى اللعنة التى أصابت الأرض ، كانت توجد أيضاً عقوبة ضمنية موقعة على الإنسان نفسه :**

كانت لعنة الأرض ضمن العقوبة التى أوقعها الله على الإنسان ، إذ قال له « ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها ... » (تك٣ : ١٧- ١٩) .

بهذه اللعنة بدأت الأرض تتمرد على الإنسان ، كما أصبحت الحيوانات تتمرد عليه ، ممثلة فى الحية ، وهكذا فقد الإنسان هيبته ، فيما كانت تعده الحية بالإلوهية !!

أول تمرد للأرض ، يكمن فى عبارة « بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك » . الأرض المباركة ، لا يتعب فيها الإنسان . أما الأرض الملعونة فتتعبه . كان آدم قبل الخطية يعمل فى الجنة ، ولكنه كان عملاً مريحاً ، ولم يذكر الكتاب مطلقاً إنه كان يتعب فى عمله ، أو أنه كان يتعب ليحصل من الأرض على أكله ...

هذه اللعنة نجدها واضحة فى قول الرب لقايين ، أول إنسان لعنه الله « متى عملت الأرض ، لا تعود تعطيك قوتها » (تك ٤ : ١٢) .

وتمرد الأرض يظهر أيضاً فى عبارة « شوكاً وحسكاً تنبت لك » ... لأول مرة نسمع عن الشوك والحسك ، إذ لم يرد لهما ذكر من قبل فى نباتات الأرض وحينما نظر الله إلى كل ما عمله فإذا هو حسن جداً : إن الأرض العطشانة ، والمحرومة من بركة الله وخيره ، يمكن أن تنتج شوكاً وحسكاً . وهى تحرم من بركة الله وخيره ، بسبب خطية الإنسان . لذلك قال له الله « ملعونة الأرض بسببك » .

إن الإنسان البار ، به تتبارك الأرض ، والإنسان الخاطىء بسببه تلعن الأرض ، كما ورد فى فى سفر التثنية (تث ٢٨) .

يقول الرب لمن يحفظ وصاياه « مباركاً تكون فى المدينة ومباركاً تكون فى الحقل . ومباركة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك ... » (تث ٢٨ : ٣ ، ٤) . وبعكس ذلك يقول الرب لمن لا يحفظ وصاياه « ملعوناً تكون فى المدينة ، وملعوناً تكون فى الحقل ... ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك » (تث ٢٨ : ١٦ ، ١٨) .

لما لعنت الأرض ، قل خيرها ، وأصبحت تنتج شوكاً وحسكاً .

وجاء المسيح الذى حمل خطايانا على الصليب ، فحمل أيضاً على جبينه الشوك والحسك اللذين أنتجتها خطية الإنسان .

قلنا إنه كانت من نتائج الخطية اللعنة . وماذا أيضاً ؟

٢ - الموت

« يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ : ١٧) .

كان الموت هو العقوبة الأساسية للخطية .

والكل قد خضع له ، مات آدم وحواء ، ومات كل نسلهما ، وسيموت النسل الذى يولد فيما بعد . ويظل الموت إلى أن ينتهى هذا العالم .

و يقول الكتاب إن « آخر عدو يبطل هو الموت » (١ كو ١٥ : ٢٦) . يحدث هذا فى نهاية العالم ، حينما تتغير طبيعتنا فى القيامة العامة ونلبس الحياة ، أو كما يقول الرسول « هذا

المائت يلبس عدم موت » (١ كو ١٥ : ٥٣) . عندئذ فقط نقول له « أين شوكتك يا موت ؟! » ... أما قبل هذه القيامة ، فتظل شوكة الموت فى أجسادنا جميعاً ... نتيجة لخطيئة آدم وحواء ...

*** ولكن لم يكن ممكناً أن يموت أبوانا فى التو واللحظة ...**

وإلاَّ تكون البشرية كلها قد إنتهت وزالت ، و يكون الشيطان قد إنتصر فى المعركة إنتصاراً ساحقاً ، ولا يكون هناك خلاص ، الخلاص الذى أعده الرب لآدم و بنيه ...

لذلك تأجل هذا الموت إلى حين ، ر بثما تلد حواء بنين وتر بيهم . لأنه فيما بعد سيأتى من نسل المرأة من يسحق رأس الحية ، و يطلب ويخلص ما قد هلك .

*** ومع تأجيل هذا الموت الجسدى ، كانت هناك أنواع أخرى من الموت ، تم بعضها فى التو واللحظة :**

هناك الموت الروحى ، وكما قال القديس أوغسطينوس [موت الجسد هو إنفصال الروح عن الجسد . أما موت الروح ، يفهو إنفصال الروح عن الله] ...

ولهذا أعتبر الكتاب أن الخطية موت ، فقال الآب عن إبنه الضال « إبنى كان ميتاً فعاش » (لو١٥ : ٢٤) . وقال الرب لملاك كنيسة ساردس « إن لك إسماً إنك حى ، وأنت ميت » (رؤ٣ : ١) . فالخطية موت روحى ، لأنها تفصل الإنسان عن الله ، لأنه لا شركة للظلمة مع النور...

*** وآدم وحواء قد ماتا هذا الموت الروحى يوم أكلا من الشجرة ، وماتا أيضاً موتاً آخر أدبياً :**

فى هذا الموت الأدبى ، ضاعت كرامة هذا الإنسان الأول ، وفقد الحالة الفائقة للطبيعة التى خلق عليها ، كما سنشرح فى النقاط المقبلة ... وأكبر تعبير على هذا الموت الأدبى ، أن الله طرده من الجنة . وعبارة « طرد » تعنى كثيراً من جهة الموتين الأدبى والروحى . على أنه من جهة هذين الموتين ، ظل الله يعمل عملية إقامة من الأموات بالنسبة إلى آدم و بنيه ، لكى يرجعهم إلى رتبهم الأولى ، ولكى تتم مصالحة بينهم و بين الله . ولكن الأمر كان يتوقف على مدى الإستجابة الفردية لعمل النعمة فى كل إنسان على حدة ...

*** بقى الموت الأبدى ، وهو أخطر ما فى حكم الموت : وهو الذى خلصنا منه المسيح بالفداء ، حين مات عنا ...**

ولكن آدم وحواء وبنيها جميعاً ، ظلوا تحت حكم الموت فى كل العصور السابقة للفداء . وكان كل الذين يموتون ، يذهبون إلى الجحيم . والمؤمنون منهم ، الراقدون على الرجاء ، يرتلون مع داود « لأنك لا تترك نفسى فى الجحيم ، ولا تدع قدوسك يرى فساداً » (مز١٥: ١٠) .

ولأن الخطية حرمت الإنسان من الحياة ، وأوقعته فى الموت ، لذلك رأينا أمراً خطيراً قد صدر من الله « وأقام شرقى جنة عدن الكاروبيم ، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (تك٣: ٢٤) .

٣ـ فقدان الصورة الالهية

فى حالة البر الأولى ، كان آدم على صورة الله ، ومثاله ، كما قال الله « نخلق إنساننا كشبهنا » . أما فى حالة السقوط ، فقد فقد الإنسان هذه الصورة الإلهية .

وفساد الطبيعة البشرية ، الذى سنتحدث عنه فى النقاط التالية ، لم يعد يتفق مع الصورة الإلهية التى كانت له يوم خُلق .

ولهذا نجد الله يخاطبه بلغة أخرى تتفق وصورته فى الخطية ، فيقول له « لأنك تراب ، وإلى التراب تعود » ...

كان صورة الله ، فأصبح تراباً .

ننتقل إذن إلى النقطة الرابعة من نتائج الخطية ، وهى :

٤ـ فساد الطبيعة البشرية

فقدت الطبيعة البشرية نقاوتها الأولى ، وبساطتها الأولى ، وعرفت الخطيئة ، وأختبرتها ، ودخلت فى ثنائية معرفة الخير والشر ، وفى الصراع بين الجسد والروح ، وهبطت إلى المستوى الجسدى أحياناً كثيرة . أصبح من السهل أن تخطىء ...

وقد رأينا فيما بعد ، كيف إنهارت هذه الطبيعة البشرية ، وإنحدرت إلى مستويات

مؤسفة ، وتوارثت ألواناً من الفساد ، إلى أن وصلت إلى محبة الخطية ، وإلى العبودية لها ، وإلى إنكار الله ، والجهل به .

وفقد آدم وحواء هيبتها ، وسلطتها على الطبيعة ، وعلى الحيوان ، فتمردت عليها الأرض ، وصارت تنبت لهما شوكاً وحسكاً ، وتمرد عليها الحيوان ، وقامت عداوة معه ...

وظهر فساد الطبيعة البشرية أيضاً فى إنحلالها ، فى تعب الجسد وتعب النفس ، وستبقى فى هذا الفساد إلى يوم القيامة حين « يلبس الفاسد عدم فساد » (١ كو ١٥ : ٥٤) .

٥ـ تعب النفس

لأول مرة نسمع عن أمراض النفس : نسمع فى قصة آدم وحواء عن الشهوة ، وعن الخوف ، وعن الخجل « أى الخزى » ، ثم عن معرفة آدم لحواء ... وعن سائر تعب الروح الذى ذكرناه فى تحليل خطاياهما .

وكل هذه كانت بداية ، إلى أن نسمع فى قصة قايين ، فى حياة أبوية آدم وحواء ، عن الحسد والغضب والقتل ، وعن القلق والرعب وفقدان السلام الداخلى (تك ٤) .

وبدا أن أمراض النفس والروح قد أخذت تزداد ، كمظهر من مظاهر فساد الطبيعة البشرية .

٦ـ تعب الجسد

أصبح آدم يأكل خبزه بعرق جبينه . يعمل فى الأرض وبالتعب يأكل منها كل أيامه ...

وأصبحت حواء بالوجع تلد أولاداً ، كما قال لها الرب « تكثيرا أكثر أتعاب حبلك » (تك ٣ : ١٦) .

وثمة تعب آخر ، هو شهوات الجسد وغرائزه ، إشتياقاته ...

وقبل الخطيئة ، لم يكن هناك تعب ، ولا وجع ... وما هذا كله إلاَّ مظهر آخر لفساد الطبيعة البشرية .

* * *

و بدا أن الحية لم تصدق فى خداعها . فبدلاً من إرتقاء الإنسان ليصير مثل الله ... إنحدر إلى أسفل .

وكان إنحدار آدم وحواء ، هو «مبتدأ الأوجاع» .

ولم يعد هناك من حل ، سوى إنتظار الخلاص الذى يأتى به المسيح ، حيث ينضح علينا بزوفاه فنطهر ، و يغسلنا فنبيض أكثر من الثلج ، ومنحنا بهجة خلاصه (مز ٥٠) .

-٢-

هابيل

أول من وصف بأنه بار (عب١١: ٤)

وأخوه قايين

أول قاتل على الأرض (تك ٤: ٨)

لا شك أن قصة قايين وهابيل ، هى من القصص المؤثرة ، لأنها تمثل أول حادث قتل يحدث بين أخين ، بل بين شقيقين ، من أب واحد وأم واحدة ، ولم يكن يوجد فى الأرض أخوة غيرهما ... أى أن قايين لم يكن له فى الدنيا سوى أخيه هابيل ، ومع ذلك قام عليه وقتله ... !

كيف دخلت الخطية ؟ وكيف بدأت ، وكيف تطورت ؟ وماذا كانت نتائجها ؟

لقد ولد قايين ميلاداً حسنا ، وسمى قايين . لأن أمه أعتبرت أنها قد أقتنته من الرب (تك ٤ : ١) ، أى حصلت عليه من الرب ... وكان قايين عاملاً فى الأرض ، وكان أخوه هابيل راعياً للغنم .

وظل هذان الأخوان يعيشان معاً فى هدوء ، إلى أن دخل بينهما نوع من التنافس ... لقد قدم كل منهما قرباناً للرب ، فقبل الرب قربان هابيل ، ولم يقبل قربان قايين . فغضب قايين على أخيه هابيل وقتله ...

مشكلة هابيل ، إنه إنسان مقبول من الرب !

هكذا كانت مشكلة مريم أيضاً ، التى أختارت النصيب الصالح ، وجلست عند قدمى المسيح ، فرضى عنها . وإستاءت أختها مرثا ووجهت إليها اللوم وغضبت عليها ... !

ما ذنب مريم، إذا جلست عند قدمى المسيح ورضى عنها ، وما ذنبها إذا كان عمل مرثا ليس فى مستوى عملها ؟!

قايين وجد أن قربانه غير مقبول كأخيه ، فدخله الحسد ... وكان هذا الحسد بدء الشر الذى دخل قلبه ، وإنتهى به إلى قتل أخيه . وربما كان الحسد أيضاً هو الذى دفع الشيطان إلى إسقاط آدم وحواء ، إذ رأى أن الله قد أحبها وباركهما ، وأعطاهما سلطاناً ومركزاً ، وقد خلقهما على صورته ومثاله ، فحسدهما الشيطان ، ودبر خطته لإسقاطهما . ولذلك نقول فى القداس الإلهى « والموت الذى دخل إلى العالم بحسد إبليس ، هدمته ... » .

مساكين هم الأشخاص الذين يسيرون فى طريق الرب ، لأن الشر يتضايق من نجاحهم ومحبة الله لهم . فيدبر لهم ما يشاء أن يدبر... إنه حسد الشياطين وأعوانهم ...

سواء فى ذلك آدم ، الذى حسده الشيطان فى الجنة ... أو هابيل البار ، الذى قدم لله قرباناً أفضل من أخيه قايين ، فحسده أخوه وقتله .

أو داود ، إذ مسحه صموئيل ملكاً ، ونجح فى حياته ، فتضايق أخوته ، وتضايق أيضاً شاول الملك ، وحسده ، ودبر لقتله ...

أو يوسف الصديق ، إذ كان إنساناً موهوباً ، ومحبوباً عند أبو يه ، فحسده أخوته ، و باعوه كعبد ...

أو السيد المسيح نفسه ، الذى كان يجول يصنع خيراً : فإذ رأى الكهنة أن « الكل قد ساروا وراءه » ، حسدوه ، وجمعوا عليه شهود زور ، واتهموه باطلاً ، وقدموه للصلب ...

وهكذا كانت مشكلة هابيل ، أن قربانه كان مقبولاً أمام الله ، فتضايق أخوه ، و يقول الكتاب فى ذلك : « **فإغتاظ قايين جداً ، وسقط وجهه** » (تك ٤ : ٥) .

إذن قايين لم يكن يسعى إلى محبة الله ، وإلى إرضاء قلب الله ، إنما كان يبحث عن كرامته الشخصية ورضاه عن نفسه وعن مركزه .

لو كان يبحث عن محبة الله ، لكان فى حالة رفض الله لقربانه ، يفتش كيف يرضى الرب ، ولا مانع من أن يغير قربانه ، و يقدم ذبيحة كهابيل ، ويحسن تصرفه . ولعل هذا ما قصده الرب بقوله له : « إن أحسنت ، أفلا رفع » (ع ٧) أى أفلا يرتفع وجهك ، إن أحسنت التصرف ، وإن أحسنت التقدمة ، وإن أحسنت التفكير والشعور ...

كانت أمامه فرصة لتحسين موقفه ، ولكنه لم يستغلها ، ولم يستفد من توجيه الرب ، الذى تنازل وكلمه ...

كان أمامه أن يتضع ، و يشعر أن قربانه « من ثمار الأرض » ليس هو حسب مشيئة الرب ، وإنما مشيئة الرب هى أن يقدم ذبيحة ، محرقة سرور للرب ، كما فعل أخوه البار هابيل . ولكن قايين لم يشأ أن يعترف بينه و بين نفسه أنه مخطىء فى تقدمته ، وأنه يجب أن يسلك كأخيه . إنما ركز على كرامته .

كانت ذاته تتعبه . وليته كان يحب ذاته محبة سليمة !

إن الذى يحب ذاته محبة حقيقية طاهرة من الكبرياء والعناد ، لا مانع مطلقاً من أن يصحح لهذه الذات أخطاءها ، و يعمل على تطهيرها من نجاساتها . أما محبة الذات الممتزجة بالكبرياء ، فإن كبرياءها تعميها عن رؤية أخطائها ، فتظل كما هى ، وتصر على سلوكها ... !

وهكذا كان قايين ، محبته لذاته ، حطمت هذه الذات ...

محبة جاهلة ، غير حكيمة ، لا تعرف النافع لها من الضار... وقديماً فكر الشيطان فى ذاته ، فقال « أصعد إلى السموات ، أرفع كرسى فوق كواكب الله ... أصير مثل العلى » (أش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . وبهذه المحبة الخاطئة لنفسه ، ضيع نفسه ...

وبالمثل أحب الإنسان الأول ذاته محبة خاطئة . وإذ أراد أن يصير مثل الله عارفاً الخير والشر ، أضاع هذا الإنسان نفسه ، وطرد من الجنة ، ودخل فى حكم الموت .

قايين أيضاً ركز كل تفكيره فى ذاته ، كيف يتفوق على أخوه ويحظى برضى الرب ؟! ... فرأى أن يتخلص من أخيه ...

يتخلص من هذا البار ، الذى كلما يراه تصغر نفسه و يشعر أنه أقل ... ورأى أنه إذا تخلص منه ، لا يبقى أمامه شخص أفضل ، يثير حسده .

كانت كبرياء الذات ، أهم عنده من نقاء الذات .

لقد نبهه الرب إلى أن هناك « خطية رابضة » . وقال له بكل وضوح « وإن لم تحسن ، فعند الباب خطية رابضة ، وإليك إشتياقها ، وأنت تسود عليها » .

مازال فى متناول يدك أن تتخلص منها ...

إن الخطية مازالت على باب فكرك ، وعلى باب قلبك ، وعلى باب إرادتك . ومازالت إرادتك فى يدك ، وأنت تسود عليها ... فإحذر لنفسك قبل أن تتورط ...

ما أعمق هذا الحنو ، فى معاملة الله للخطاة ...

إنه يظهر لقايين ، أول إنسان هلك على الأرض . و يكلمه ، و يشرح له التجربة التى أمامه ، و ينصحه ، بل و يناقشه أيضاً : « لماذا سقط وجهك ؟ ليس السبب راجعاً إلى أخيك ، بل يرجع إليك أنت نفسك . إنك لم تحسن التصرف . وإن أحسنت سيرتفع وجهك . علاج مشكلتك فى أن تغير مسلكك وتحسن التصرف ، وليس فى أن تستسلم للخطية ... إحترس لنفسك عند باب قلبك وفكرك توجد خطية رابضة . حاول أن تنتصر عليها . فأنت مازلت تسود عليها ...

حنو من الله ، أن يظهر للخاطىء ، و يشرح له ، ويحذره قبل أن يسقط ، و يريه طريق التخلص من خطيته ، و يسنده بنصائحه فى وقت تجربته ومحاربة العدو له .

قد يخطىء البعض ، ويظن أن الله لا يظهر إلاّ للقديسين !

إن ظهوره لقايين قبل سقوطه فى خطية القتل ، وتحذيره له ، إنما هو مثال عجيب لمحبة الله وطول أناته ، فى العهد القديم ، بل منذ بدء الخليقة ...

وكأنه يقول لقايين : تعال يا حبيبى ، لماذا أنت مغتاظ ، ولماذا يسقط وجهك ؟ أنا أريد أن أخلصك من غمك ، وأعيد إليك سلامك . إن الخطية هى التى أفقدتك سلامك . تخلص منها ، يرجع إليك سلامك ...

لا تظن أن هابيل هو سبب متاعبك ... كلا ، إن متاعبك سببها الخطية الرابضة . فإفحص نفسك جيداً ...

سبب متاعبك ، يكمن فى طريقة نظرتك إلى الأمور وفى ردود الفعل داخلك إزاء نجاح أخيك ...

لو كانت فى قلبك محبة ، لكنت تفرح وتسر ، إن رضى الرب على أخيك ، فلا تغتم ولا تغتاظ . بالمحبة ، تفرح لفرح أخيك ، وتفرح لرضى الرب عليه ...

لكن قايين لم يفرح لفرح أخيه ، ولقبول قربانه ...

مثاله كان الإبن الأكبر ، الذى لم يفرح إذ قبل الأب أخاه الأصغر ، وألبسه الحلة الأولى ، وجعل خاتماً فى أصبعه ، وذبح له العجل المسمن .(لو١٥ : ٢٧ ، ٢٨) .

ذلك الأخ أيضاً إغتاظ ، ولم يكن قلبه مستقيماً تجاه أخيه ، وكان يفكر فى ذاته وليس فى أخيه ، ونفس الحسد أتعبه ...

حقاً ، إنها قصة متكررة ، تحدث فى كل جيل ، سببها عدم نقاوة القلب ، والإستسلام لمشاعر الغيرة ...

لماذا يكون نجاح أخيك ، له رد فعل خاطىء فى قلبك ؟! « كان ينبغى أن تفرح وتسر » لأن الله قبل قربان هابيل ... كان ينبغى أن تفرح أيضاً لأن هابيل قد كشف لك الطريق الصالح الذى يرضى الرب ، حتى تسير فيه أنت أيضاً ، وتحصل على نفس الرضى والقبول ...

العجيب أن قايين ، بعد أن كلمه الله ، لم يستجب لكلمة الله ، ولم يفتح لها قلبه ، بل فتحه للخطية ...

بعد أن نصحه الرب ، لم يستفد من النصيحة ، إنما تورط فى الخطية ، و بالأكثر ، وقام على أخيه فقتله !

إنه يذكرنا بالشيطان فى قصة أيوب الصديق ، لما وقف أمام الله ، ولم يستفد من وجوده فى حضرة الله شيئاً . وخرج من عند الله لكى يتعب أيوب الكامل والمستقيم ، ويهدم له بيته ، و يقتل أولاده و يضيع كل غناه ... و بعد أن وقف ثانية أمام الله ، إزداد فى شره ، وضرب أيوب بقرح ردىء ، دون أن يستفيد شيئاً من اللقاء مع الله وسماع كلمته ... !

يذكرنا أيضاً بيهوذا الإسخريوطى ، الذى لم يستفد من عشرته للسيد المسيح ، ولا من أكله معه ، وغمسه لقمته فى نفس صحفته ، ولم يستفد من كلام الرب وتحذيراته ، وقام بعد العشاء ليخون سيده و يسلمه !

وسائط النعمة يستفيد منها من يشاء ، و يرفضها من يشاء . إنها لا ترغم الإنسان على عمل الخير...

الشاب الغنى ، تقابل مع السيد الرب ، وسمع نصيحة نافعة من فمه الإلهى ، ولكنه بعد سماعها مضى حزيناً ، ولم يقل الكتاب إنه نفذ شيئاً من تلك النصيحة ...

أمر محزن ومخجل ، أن يسمع إنسان نصيحة من فم الرب نفسه ، ثم يمضى حزيناً ، ولا ينفذ . هكذا قايين أيضاً ...

إذن ، فلا يجوز أن يحتج أحد و يقول « مشكلتى الوحيدة هى عدم وجود مرشدين روحيين . ولو كان لى مرشد روحى حكيم ، لصرت قديساً » ...

هوذا أمامنا أمثلة لأشخاص أرشدهم الرب نفسه و ولم يستفيدوا ، لأن القلب رافض أن يستجيب ، مثل الأرض التى القى عليها البذار الرب نفسه ، فأنتجت شوكاً ... أو سمحت للشوك أن يخنق زرعها ، وللطير أن يلتقط بذارها ...

لقد تقابل قايين مع الرب ، وللأسف لم يستفد . سعى الرب إليه وأراه الطريق ، ولكنه رفض أن يسير فى طريق الرب ، ولم يستجب إلاَّ لفكر قلبه الردىء .

المشكلة تكمن فى عدم وجود إستعداد داخلى .

لا تقل « إننى أذهب إلى الكنيسة ولا أستفيد » ... لأن غيرك يذهب و يستفيد . لو كنت تريد أن تستفيد لأستفدت . إن لم تستفد من القداس ، يمكنك أن تستفيد من العظة . وإن لم تستفد من العظة ، يمكنك أن تستفيد من مجرد القراءات ، بل من مجرد

الوجود فى الكنيسة فى جو روحى ... بل يمكنك أن تستفيد - لو أردت - من منظر الأيقونات ، ومن الشموع ... أو على الأقل تخلو إلى نفسك مع الله ، ولو لحيظات ...

وهكذا ، لأن قايين لم يكن لديه إستعداد داخلى للإستفادة ، لم ينتفع بكلمة الرب له ...

لم تكن له أذنان للسمع ، فلم يسمع ...

ربما أثناء حديث الرب معه ، كان منشغلاً بالغيرة التى فى قلبه ، وكان الحسد يسد أذنيه ، وكان الإنفعال الداخلى أعلى صوتاً فى القلب ، وكانت ذاته حائلاً يحجب حكمة الوصية والنصيحة ...

« وكلم قايين هابيل » (تك ٤ : ٨) . ترى ماذا قال له ؟

أتراه قال له « هيا بنا إلى الحقل ، نقضى الوقت بعيداً عن الأسرة ، معاً ... بعيداً عن ملاحظة الأبوين » ... على أية الحالات ، لم يكن هابيل ينتظر خيانة من أخيه قايين . إنه شقيقه ، ويمكن أن ينام إلى جواره و يغمض عينيه ، دون أن يخشى شراً ، فى ثقة بهذه الأخوة ... لو كان فى قلبه أدنى شك من جهته ، لإحترس منه . ولكن حينما يأتى الشر ممن هم فوق مستوى الشك ، حينئذ تكون المأساة أعمق وأكثر تأثيراً فى النفس ...

« وقام قايين على هابيل أخيه وقتله » . وهكذا تطورت به الخطية من سىء إلى أسوأ ، وهو مستسلم لها ...

تطور من غيرة ، إلى حسد ، إلى غيظ ، إلى حقد ، إلى فكر الشر ، إلى تدبيره وتنفيذه ، إلى قتل أخيه ... وبعد أن كانت الخطية رابضة عند الباب ، دخلت إلى قلبه ، وسيطرت على فكره ومشاعره وأعصابه وإنفعالا ته .

وبعد أن كان يسود عليها ، صارت تسود عليه ...

ودفعته الخطية فى طر يقها ، فخضع لها ونفذها ... وحينما نفذ إختفت من أمامه كل المُثل : لا محبة ، ولا أخوة ، ولا شفقة ، ولا إرضاء الله ...

وربما ظن قايين ، أنه لا يوجد أحد يراه ...

وأنه سوف لا يعلم أحد بجريمته ، وأنه قد تخلص من هذا المتفوق الذى تصغر نفسه

أمامه ، وأن صوت هابيل قد سكت إلى الأبد .

وهابيل البار ، لم يستطيع أن يدافع عن نفسه .

وهكذا بدا أن الشر قد إنتصر على الخير ...

وبدا أن الخير لم يستطع أن يدافع ، فهزمه الشر ...

نعم ، إن الشر في الأرض ، يبدو دائماً أكثر جرأة ، وأكثر عنفاً ، وأكثر تسلطاً . يعرف أن يضرب ، و يعتدى ، و يقتل ... والطرق أمامه مفتوحة كلها ، بعكس الخير الذى يعف عن كثير من الوسائل التى يستخدمها الشر .

إن قصة قايين وهابيل ، ترينا مدى إمكانيات الشر :

الشر يستطيع أن يدبر مؤامرات ، وأن يتنكر لكل القيم ، وأن يستخدم كل الوسائل مهما كانت خاطئة . يستطيع إن يخون ، وأن يخدع ، وأن يتعدى ، وأن يقتل ، ومع كل ذلك يجرؤ أن يستر فعلته بالأكاذيب . و يقول فى جرأة حتى أمام الله « أحارس أنا لأخى » ؟! ...

الشر إستطاع بالنسبة إلى السيد المسيح نفسه ، أن يقدم تهماً باطلة ، وأن يحضر شهود زور ، وأن يتملق قيصر ، وأن يثير الشعب كله ، وأن يصلب البار .

والشر إستطاع أن يغتصب نابوت اليزرعيلى ، وفى نفس الوقت يلفق له تهماً تجعله يستحق الموت ... ! (١ مل : ٢١) .

نعم إن الشر قد ينتصر على الخير ... ولكن القصة لها تكملة ... وتكملتها إن الله موجود ، وإنه يحكم للمظلومين .

ربما لم يحسب قايين حساباً لوجود الله ولتدخله ، وظن أن الموضوع بينه و بين هابيل فقط ، وليس من ثالث يتدخل بينهما ، لكى يكمل القصة ، و يقيم التوازن .

هذا الثالث العادل ، تدخل بين الخير والشر ...

تدخل ليحاسب ويحاكم ، و يعاقب ، و يشرح للشر أن الأمر لم ينته بعد ، وأن هناك قوة أكبر و وأن هناك عيناً ترى ، وقضاء يحكم . وأن الله لا يترك عصا الخطاة تستقر على نصيب الصديقين .

وأثبت هذا الثالث ، أن إنتصار الشر هو إنتصار زائف ومؤقت ، وأن العبرة بالنهاية ، والنهاية هى إنهيار الشر.

إذن ، لا تفقد الرجاء أبداً . إن أصابك شر ، وحتى إن قوى الشر عليك ، وعلى ظهرك جلدك الخطاة وأطالوا إثمهم ، فلا يتزعزع قلبك . ثق أن الله يرى و يسمع ، و يكتب أمامه سفر تذكرة (مل٣: ١٦) . وثق أن الرب صديق هو يقطع أعناق الخطاة (مز ١٢٨) ...

لا تنظر إلى أوائل الأشرار ، وإنما إلى نهايتهم ... وأسأل نفسك : من الذى إنتصر: قايين أم هابيل ؟

هابيل كُتب إسمه فى سفر الحياة وهو « وإن مات ، يتكلم بعد » (عب ١١ : ٤) . أما قايين فعاش على الأرض معذباً طول أيامه ، قلقاً ، خائفاً ، فاقداً سلامه . وإنتظرته عذبات فى الأبدية أشد آلاماً .

إن الشر قد يرتفع على الخير ، ولكنه يتبدد : كمثال النار والدخان . الدخان يرتفع إلى فوق وفيما هو يرتفع ، تتسع رقعته ، وتقل حدته ، و ينتشر فيندثر و يضعف ويختفى . أما النار ، إن ظلت تحته ، إلاَّ أنها تستمر بعده فى قوتها وفى نقاوتها . إنها أقوى وأشد حرارة ... ولا تبالى بصعود الدخان إلى فوق ، فوقها ...

هابيل لم يدافع عن نفسه ، فدافع الله عنه .

لم يرو لنا الكتاب أن هابيل دافع عن نفسه ، أو أنه قاوم الشر، أو حتى أنه شكا أو إستنجد أو إستغاث . لقد لاقى مصيره فى صمت ، ومات بيد أخيه ...

ولكن القصة لم تتم فصولاً . إذ إن الله واجه قايين وسأله « أين هابيل أخوك ؟ » .

فأجاب « لا أعلم ، أحارس أنا لأخى ؟! » ...

وهكذا قادته خطية القتل إلى خطية الكذب ، فكذب على الله نفسه ، وقال له لا أعلم ، وهو أكثر الناس علماً بمصير أخيه ! .. أو كان الوحيد من البشر الذى يعلم بمصير أخيه !!

كان قايين كفأر فى مصيدة ، يحاول أن يفلت فلا يستطيع . إنه يلتمس طريقاً للهروب من مسئولية جريمته . يدعى عدم المعرفة . يدعى أنه غير مسئول عن أخيه وعن

حراسته !! لقد أمسكه العدل الإلهى . فأخذ يكذب على فاحص القلوب والكلى ، والعارف بالخفيات والظاهرات ، على الله الذى أنذره من قبل ولم يسمع ...

حقاً ، إن الكذب هو الإبن البكر لكل خطية . هو الغطاء الذى يحاول الخاطىء أن يغطى به على خطيئته فلا تظهر ...

إنه أسهل طريقة ، وأول طريقة ، يحاول بها أن يهرب من المسئولية ، من العقوبة ، أو من العار والفضيحة ... يندر أن يوجد خاطىء لا يكذب الذي يعترف بخطيئته ، هو التائب . أما الخاطىء المستمر فى خطيته فإنه يكذب لسترها ... ولكننا نفهم أن يكذب خاطىء على إنسان مثله . أما أن يكذب على الله نفسه ، فهذا أمر خطير له دلالته .

إن كذب قايين على الله ، يدل على بعده عن الإيمان . إنه لا يعرف من هو الله ، وما هى قدرته ، وما هو عمله غير المحدود !

والعجيب أن الله هنا لم يجرح شعور قايين ، ولم يقل له إنه كذاب . بل لم يجادله إطلاقاً فى كلامه ، وإنما واجهه بالحقيقة التى تكشف كذبه ، فقال له « صوت دم أخيك صارخ إلىَّ من الأرض » ... إن هابيل لم يتكلم ، ولكن دمه له صوت ، صارخ من الأرض ...

قد يصمت المظلومون . ولكن صمتهم له صوت صارخ إلى الله .

والله يسمع هذا الصوت ، صوت صمتهم الصارخ ... إن يوسف الصديق قد ظلمه أخوته و وظلمته إمرأة فوطيفار ، وصمت ... ولكن صمته كان يصرخ إلى الله ، وسمع الله ، وتدخل لينقذه من الظلم .

والعمال الذين بخست أجورهم ، يقول الكتاب إن هذه الأجرة المبخوسة تصرخ ، والصراخ قد دخل إلى أُذنى الرب (يع ٥ : ٤) .

إن الله يقاتل عنكم وأنتم تصمتون ، لأنه يسمع صوت صمتكم .

إذا ظلم إنسان وسكت ، فلا تظن أن الأمر قد إنتهى عند هذا الحد . فإن صوت سكوته يرن فى أُذنى الرب ، يقول الوحى الإلهى « من أجل شقاء المساكين وتنهد البائسين ، الآن أقوم يقول الرب ـ أصنع الخلاص علانية » (مز ١١) . نعم ، قم أيها الرب الإله ، وليتبدد جميع أعدائك ، وليهرب من قدام وجهك كل مبغضى إسمك القدوس ...

« صوت دم أخيك صارخ إلىَّ من الأرض . فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك » .

هنا بدأت العقوبة . هنا يجد الشر من يقف فى طريقه ، و يقاومه « لى النقمة ، أنا أجازى يقول الرب » (رو١٢ : ١٩) .

إن لم يجد الشر رادعاً على الأرض ، فهناك رادع من السماء .

ولأول مرة هنا يلعن الرب إنساناً ... عندما أخطأ آدم قال له ملعونة الأرض بسببك ، ولكن لم يلعنه شخصياً .

لعنت الحية ، والأرض ، ولأول مرة هنا يلعن الإنسان .

كان قايين قد فقد الصورة الإلهية نهائياً ، الصورة التى كانت للإنسان حينما خُلق على شبه الله ومثاله ... إن قايين لم تغره الحية كحواء ، ولكنه سقط من الداخل . رداءة قلبه قد أسقطته ...

إين الحية فى سقطة قايين ؟

و بلعنته ، لُعن كل نسله أيضاً ، وأصبحوا يدعون أولاد الناس ، بينما دعى أولاد شيث « أبناء الله » (تك٦ : ٢) . وإستمرت هذه اللعنة ، حتى أفنى الله كل أبناء قايين بالطوفان .

« ملعون أنت من الأرض ، التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك » هذه الأرض التى تنجست بجريمة القتل ، وقبلت الدم المسفوك :

« متى عملت الأرض ، لا تعود تعطيك قوتها » (ع ١٢) .

الأرض تتمرد عليك ، ولا تعطيك الخير الذى تقدر عليه ... بدلاً من أن تعطيك عشر ين أردباً ، تعطيك إثنين أو ثلاثة . لا تجد بركة فى عمل يديك ، ولا بركة من خير الأرض وثمارها ... بالنسبة إلى البار ، قال الرب « مبارك تكون ثمرة أرضك » (تث٢٨ : ٤) . و بالنسبة إلى الخاطىء . لعن الله ثمرة الأرض (تث٢٨ : ١٨) ... فلا تعود تعطيك قوتها ...

إن ثمار الأرض فى يد الله ، يباركها حينما يشاء ، مثلما بارك غلة العام السادس ، فكان يكفى ثلاثة أعوام ...

أما إذا سلك الإنسان فى الخطية ، فقد يعاقبه الله بتمرد الأرض عليه ، فلا تعطيه قوتها ، لا تعطيه خيرها ، كما تمردت من قبل على آدم ، وصارت تنبت له شوكاً وحسكاً .

المسألة إذن لا تنحصر فقط فى خبرة الإنسان بالزراعة ، ومدى إتقانه لعمله فيها وخدمته لها ، إنما يحتاج أيضاً إلى بركة . وتتبارك الأرض متى أُرضى قلب الله ، وإلاَّ فإنه متى عمل الأرض لا تعود تعطيه قوتها . لهذا نحن نصلى من أجل ثمار الأرض ، لكيما يصعدها الله كمقدارها . و يفرح وجه الأرض ، فتكثر أثمارها .

لقد لعن الرب قايين ، وأمر الأرض أن تتمرد عليه ، وماذا أيضاً عن باقى عقوباته ؟ قال له الرب :

« تائهاً وهارباً تكون فى الأرض » ...

تفقد سلامك الداخلى . تحيا فى قلق وإضطراب وخوف تجرى وليس من مطارد . تشعر أن كل من وجدك سيقتلك . وهكذا بدأت الأمراض النفسية تعمق جذورها فى الإنسان .

فى خطية آدم ، دخله الخوف ، الخوف من الله وعقوبته،أما فى خطية قايين ، فقد دخله الخوف من الناس ، أو الرعب بمعنى أصح « يكون كل من وجدنى يقتلنى » ... (ع ١٤) .

لا سلام ، قال الرب ، للأشرار ...

الخاطىء يعيش منزعجاً بإستمرار . يخاف أن تنكشف خطيئته و يعرفها الناس . يخاف من الفضيحة والعار والسمعة السيئة . يخاف من العقوبة ، سواء عقوبة القانون ، أو أنتقام من أساء إليه . يرتعب من نتائج أخرى لا يعرفها . يصور له الإضطراب أموراً أخرى كثيرة ستحدث ... وأعداء كثير ين يطاردونه .

داخله يزعجه أكثر من أى أزعاج خارجى ...

أيهما لاقى العذاب أكثر : قايين أم هابيل .

هابيل قاسى الألم ربما لحظة أو لحظات . ضربة قاتلة أصابته فمات . أما قايين فإنه عاش العمر كله يتألم و يتعذب ، ويحطمه القلق والخوف والرعب والإضطراب . هابيل تألم بالجسد قليلاً . أما قايين فإن نفسه تعذبت من الداخل ، ولا شك أن عذاب نفسه كانت له نتائجه على الجسد أيضاً ...

هذه إحدى عقوبات الخطية تطارد الإنسان .

« فقال قايين للرب : ذنبى أعظم من أن يحتمل . إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ، ومن وجهك أختفى . وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى » ...

نلاحظ هنا أن عبارة « ذنبي أعظم من أن يحتمل » لم تكن عبارة توبة ، إنما خوف من العقوبة ...

أى أن العقوبة أعظم من إحتماله ، عقوبة أن يكون تائهاً وهارباً فى الأرض ، ومهدداً من كل أحد بالقتل ... لذلك فإن الله الرحوم ، الذى يشفق حتى على القلوب القاسية إذا ما تذللت أمامه ، طمأن قايين الخائف « وجعل له علامة لكى لا يقتله كل من وجده » (ع ١٥) . بل قال له أيضاً « كل من قتل قايين ، فسبعة أضعاف ينتقم منه » .

ونلاحظ أن قايين لم يطلب مغفرة لخطيئته ، بل أنه لم يقل عبارة أخطأت . كل ما أتعبه هو العقوبة ...

وإذ جعل الرب علامة لكى لا يقتله كل من وجده ، « خرج قايين من لدن الرب ، وسكن فى أرض نود » . وسكن معه الخوف والرعب كل أيام حياته . لقد قتل أخاه فى لحظات . ولكن الخوف ظل يقتله كل يوم وكل ساعة وكل لحظة ... وظلت خطيئته أمامه كل حين ، لا تقوده إلى التوبة إنما تحطمه بالخوف . فمن أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ ...

هناك مجرمون يتمنون العقوبة ، هرباً من الإنزعاج الداخلى . وقد يسلمون أنفسهم للعدالة و يعترفون غير محتملين عذاب الضمير أو عذاب النفس .

داود ، قد غفر له الله خطيئته ، ونقلها عنه (١ صم ١٢) وسامحه من جهة العقوبة الأبدية . ولكن بشاعة الخطيئة ظلت أمامه فى كل حين (مز ٥١) ، وبسببها كان يبلل فراشه بدموعه (مز ٦٠) ، ويمزج شرابه بالدموع ...

وظل قايين يطارده الخوف ، وترن فى أذنيه كلمات الرب « تائهاً وهارباً تكون فى الأرض » .

وأصعب من طرده من وجه الأرض ، أنه طرد من وجه الله أيضاً ، فمن وجه الله يختفى ...

فالخطية هى إنفصال عن الله ...

والخاطىء ينفصل بخطيئته عن الله . يختفى الله من حياته ، ويختفى هو من أمام وجه الله . يوجد حاجز كبير بينه وبين الله . و يشعر بهذا الفاصل ، و يفقد الدالة ومشاعر الحب ...

ولا ينكسر هذا الحاجز إلاّ بالتوبة ، فيصرخ الإنسان قائلاً للرب : إلى متى تحجب وجهك عني (مز١٢) ...

ولكن الكتاب لم يقل إن قايين قد تاب ، ولم يقل إنه عاد فاصطلح مع الله . ولم يقل إن اللعنة زالت عنه ، أو أن الرب عاد فرضى عليه . لقد كان أول إبن لآدم وحواء بعد خطيئتها ، وللأسف كان إبناً للهلاك . كان أول قاتل ، وأول إنسان ملعون ، وأول إنسان إستحق العقوبة الأبدية ، إلى جوار عقوبته على الأرض .

إنه لم يقتل هابيل ، إنما في الواقع قد قتل نفسه ... وهابيل لم يمت ، بينما قايين هو أول إنسان مات ، موتاً أبدياً .

هل تظنون أن هيرودس قد قتل يوحنا المعمدان ؟ أم الواقع أن هيرودس قد قتل نفسه . قتل روحه وحياته وأبديته . أما يوحنا فهو حي في الفردوس يتنعم ...

إن الإنسان الذي يخطيء إلى غيره ، إنما يخطيء إلى نفسه .

وما أقل الخطاة ، الذين يشعرون أنهم يخطئون أنفسهم ...

فليعطنا الرب بركة هابيل البار ، أول من ذكر له الكتاب أنه قدم محرقة للرب ، وذبيحة مقبولة ، نذكرها بإستمرار في كل قداساتنا . فنقول في مقدمة أوشية بخور باكر « يا الله ، الذي قبل إليه قرابين هابيل الصديق ... إقبل إليك هذا البخور من أيدينا نحن الخطاة » ...

وذبيحة هابيل الصديق تعطينا فكرة عن أهمية التقليد في الكنيسة . لأن هابيل في تقدمته لم ينفذ وصية مكتوبة ، ولم تكن هناك شريعة مكتوبة في أيامه ، ولا وصية مكتوبة تأمر بتقديم المحرقات ... إنما أخذها هابيل عن أبيه ، الذي أخذها من الله .

لم تكن هناك وصايا مكتوبة أيام هابيل . ولكن كان هناك التقليد أو التسليم . جيل يسلم جيلاً وصايا الرب . وظل الأمر هكذا في كل ذبائح نوح وإبراهيم وإسحق و يعقوب وأيوب ، إلى أن وصلت إلينا الشريعة المكتوبة على يد موسى النبي ، بعد آلاف من السنين عاشتها البشرية بالتقليد والتسليم من الآباء ...

وجميل جداً هو قول الكتاب عن تقدمة هابيل البار : « **وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها** » (ع ٤) .

لقد قدم البار أفضل ما عنده للرب .

بل أنه نفذ وصية البكور ، قبل أن يقول الرب على يد موسى النبي « قدس لى كل بكر ، كل فاتح رحم ... إنه لى » (خر١٣ : ٢) .

أتراه قدم البكور ، بروح النبوة ، قبل الوصية المكتوبة ؟ أم تراه فعل ذلك عن طريق التقليد والتسليم أيضاً ؟ أم هو القلب البار الحساس الذى يدرك مشيئة الرب ورغبته ، دون أن يتلقنها من معلم ...؟

إنه هابيل الذى شُهد له أنه بار ، وشهد الله لقرابينه . « وبه وإن مات يتكلم بعد » (عب ١١ : ٤) .

ولقد ذكره بولس الرسول فى مقدمة رجال الإيمان : فقال « بالإيمان ، قدم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين » (عب ١١ : ٤) . إذن لم تكن هذه الذبيحة مجرد أمر تعوده هابيل ، أو تسلمه بلا فهم . وإنما كان عملاً من أعمال الإيمان « به شُهد له أنه بار » ...

إن هابيل يمثل الإيمان وهو بكر ، فى بداية معرفته . إنه أول إنسان فى العالم ، وصف بكلمة الإيمان .

ترى ماذا كان الإيمان فى أيام هابيل ؟ ...

إنه على أية الحالات كان بداية لذلك المبدأ اللاهوتى القائل « بدون سفك دم لا تحصل مغفرة » (عب ٩ : ٢٢) .

الخطية كشفت عرى الإنسان آدم ، والذبيحة غطته ، حينما صنع له الله أقمصة من جلد (تك٣ : ٢١) ، ورفض أن يغطى بورق التين ، وبشىء من ثمار الأرض .

وعرف هابيل هذه الحقيقة : الله يريد الدم لا ثمار الأرض . فقدم الدم من أبكار غنمه ومن سمانها . بينما قدم قايين من ثمار الأرض . وكأنه لا يؤمن بما حدث لأبويه ...

وكانت ذبيحة هابيل رمزاً لذبيحة السيد المسيح .

وكان هابيل فى ذبيحته كاهناً للرب .

ولم يكن قايين كذلك ...

ولم يذكر الكتاب خطية إرتكبها هابيل ، بل شهد له السيد المسيح نفسه أنه بار (مت ٢٣ : ٣٥) .

ويذكرنا بالبر الذى يناله كل من يقدم ذبيحة للرب .

أنستطيع أيضاً أن نقول إن هابيل كان أول شهيد :

لقد قُتل لأجل بره ، وبسبب ذبيحته التى قبلها الرب ، ورضى عنها ...

إنه أول دم بشرى يتقبله الرب .

إنه باكورة الدماء الزكية المقدسة التى تقبلتها السماء ، عبر الأجيال الطويلة ...

إنه الباكورة التى قدمت بكورها للرب .

وحسناً إنه إنتقل إلى السماء بعد تقديمه الذبيحة .

إنتقل وهوفى حالة بر ، مقدس بالذبيحة التى قدمها .

وعزيز عند الرب موت أتقيائه ...

فهرســت

صفحــة

شخصيات الكتاب ٦
آدم وحواء ١٣
قايين وهابيل ٤١

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٠/٢٦٤٤